

نُهى داوُد

أدب جريمة

رواية

جثتان والثالثة عند قدمي

ساحر الكتب

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى روح أبي الحبيب..
الذي لم يبارحنا أبدًا.

-1-

جثة ممدة عند قدمي

تزوجت منذ خمسة عشر عامًا، ولم أرَ زوجي منذ ليلة الزفاف!

ولكن تلك قصة أخرى، ما يهم الآن هو هذه الجثة الممددة عند قدمي.. ماذا أفعل بها؟

أأضعها في حوض الاستحمام وأصب عليها أحماضًا تذيبها، ثم أصنع من بقاياها حساءً لذيذًا أرمم به عظامي؟! هكذا أكون ظفرت بقطعة منه بين أحشائي كما تمنيت دومًا.. ولكن من أين لي بتلك الأحماض الآن؟!

***

تزوجني غالب تنفيذًا لوصية جدي.. من أجل الميراث.. عشرات الفدادين. تستحق بالطبع، أعلم ذلك ولا ألومه، ولكنني لم أرَه منذ ليلة الزفاف.. تزوجني وذهب..

ما زلت على ذمته. لم يكترث لتطليقي.. فهو يعلم.. كما أعلم أنا.. أنه لا يوجد رجل على وجه الأرض قد يرغب بالزواج مني.

بظهري المحدودب، وشعري الأشعث الشائكة أطرافه، وعينَي الجاحظتين، وسنّي الأمامية الناقصة!

أظنه أسرَّ لجدي بأنه لن يستطيع تقبيلي بظهرٍ محدودبٍ وسِنٍّ ناقصة.

الحدبة تحول دون التقبيل، إنما لا تحول دون عقد الزواج وأخذ الأموال. معروفة!

آه ولكن الجثة؟

هل أنتظر حتى يخلو الشارع من المارة ثم أحملها وأرميها في مكب القمامة القريب؟

لن أتمكن من حمله فهو ثقيل. أأجره؟ لا، الجر سيترك أثرًا واضحًا من الدماء يقودهم إلى باب بيتي. هذا الباب الذي لم يعُد لي في الدنيا ستر سواه.

لا أعلم أين يختفي الأثاث من حولي!

وحدة الأدراج الخشبية التي تزينت بنقوش الأزهار الملونة، والمرآة البلجيكية ذات الإطار المُذهب. كان البيت زاخرًا بقطع الأثاث المختلفة التي عاشت زاهرة في حياة أبي وأمي وأمير. ولكن منذ أن رحلوا، واحدًا تلو الآخر، أخذت الأشياء في التناقص والاختفاء..

أم هي ذاكرتي؟!

لا تهم تلك التفاصيل الآن، يمكنني استرجاعها فيما بعد، المهم التخلص من الجثة.

تبًّا لذلك البائع العجوز الذي خدعني وباعني تمثالَي الجرانيت المتماثلين مدعيًا أنهما غير قابلين للكسر، ها هو ذا قد تهشَّم أحدهما على رأسه إلى فتات.

سأعود للبائع الكاذب وأسترد نقودي.

لقد تهشَّم التمثال إلى مئات من القطع المتناثرة التي يتعين عليّ الآن كنسها وهي غارقة في الدماء. أكره كنس الأرض وهي مبتلة.. ستتسخ المقشة كثيرًا وستتشبث بأهدابها القطع الصغيرة إلى الأبد.

آه ولكن الجثة!

***

-2-

حلاوة روح

تزوجت منذ خمسة عشر عامًا، ثم لم أرَ زوجي منذ ليلة الزفاف...

آه ولكن ماذا عن الجثة؟

هل أطلب من حارس العقار أن يُخلصني منها؟

يمكنه بيعها بالتجزئة لتُجَّار الأعضاء، فهي ما زالت دافئة. ومازالت العين تطرف.

أم هي حلاوة روح؟

هاتان العينان الزمرديَّتان الآسرتان اللتان وقعت في هواهما، ثم لم أرهما منذ ليلة الزفاف!

كلا.. سأحتفظ بالعينين لنفسي، وأترك للحارس بقية الأعضاء.

سأحفظهما طازجتين في برطمان زجاجي تسبحان وسط زيت الزيتون.. أضعه بجوار فراشي.. وأنظر فيهما كل صباح.

لطالما همتُ بهما وهو حي، ولكنه كان يتمنَّع عنِّي ويُشيح بوجهه.

من اليوم لن يستطيع المراوغة.

ستظل عيناه تحدقان في عينَي. رغمًا عنه.. وإلى الأبد.

وبعدها.. ربما أستخدم قليلًا من ذلك الزيت كدهان لشعري وكفِّي.. شيء من رائحة المرحوم.

آه ولكن الجثة!

أأدفنها في حديقة البناية؟

ستنبعث منها الرائحة وتتصاعد إلى أعلى حتى تصل إلى شرفتي وتكدرني أثناء شرب قهوتي الصباحية.

تفكيري مشوش، سأخرج إلى الشرفة كي أستنشق قليلًا من الهواء.

ها هو شوال الطماطم في مكانه بجوار السور ولا يزال ممتلئًا، لقد أحسنت بشراء شوال كامل وتركه في الشمس، تعفنت الطماطم وتعطّنت تمامًا كما أحب.

فلأجلس ولأبدأ بالتصويب.. هواية جديدة تساعدني على تقليل التوتر وتحرير مشاعري السلبية كما أراد طبيبي، هل جرَّبتم تلك الطريقة من قبل؟

أرجو ألا أنتظر طويلًا اليوم، لقد بدأ الناس يتحاشون

المرور تحت شرفتي.

أين غسيل أم فتحي الأبيض؟ اعتدتُ التصويب عليه ليتحول من قطع بيضاء فاقدة الهوية إلى لوحات سريالية بديعة من اللونين الأحمر والأبيض.

لم توقفت عن نشر غسيلها؟ هل سُرقت ملابسهم أم أصاب العطب غسّالتهم؟

آه ولكن الجثة!

يمكنني تقطيع لحمها الطازج إلى قطع صغيرة وسلقها.. وبهذه الكمية من الطماطم سأتمكن من إعداد العشرات من طواجن البطاطس باللحم.. ستُشبع فقراء الحي جميعًا.

وسآخذ ثوابًا عظيمًا، فالله يحب إطعام الطعام!

ولكن كلا..

غالب لا يستحق هذا المصير الشريف. لا يستحق أن ينتهي بكل شرِّه ولا مبالاته إلى صدقة في بطون المساكين.

اووووه.. أحسنتِ يا نجيّة، إصابة دقيقة بالوجه، تنظر لي السيدة شزرًا وهي تمسح «التفعيص» الأحمر من على وجهها، بينما أضحك لها أنا ضحكتي البلهاء ذات السِّن الناقصة.

لم أكن دومًا دون تلك السِّن كما تعرفون، فقدتها يوم

سبحت في المجاري. لا لا، تبًّا لذاكرتي، المجاري كانت يوم أن فقدت نعومة شعري إلى الأبد، أما سِنِّي ففقدتها يوم خزانة الملابس.

كنت أبكي فأرادت أمي أن تتخلص من صوتي. وضعتني في الرف العلوي من خزانة ملابسها.

انتابني يومها رهاب شديد وأنا محبوسة في تلك الخزانة الضيقة، المظلمة، سيئة التهوية، وخصل شعر أمي المستعار المخزنة فيها تحتك بوجهي وتقتحم فتحتي أنفي في الظلام فأقشعر لذلك وأنا أتخيلها شوارب فئران خبيثة تعبث بوجهي وتهم بعضِّي.

ظللت أطرق «الضرفة» المغلقة بيدي الصغيرة. ثم أخذت أطرقها برأسي، حتى انفتحت فجأة فوقعت من أعلى على وجهي ليملأ طعم الدماء الصدئة فمي وتتكسر سِنِّي الأمامية.. وأفقدها للأبد.

أراد أبي أن يمنحني سِنًّا جديدة عند الطبيب، فرفضت أمي. رأت أنه من الأفضل أن تظل ناقصة ليذكرني مكانها الفارغ في فمي ألا يعلو صوتي بالبكاء ثانية.

وحينما توسلت إليها وبكيت لاستعادة سنِّي، قالت لي:

- يا عبيطة. هكذا ستكونين مميزة وسط أقرانك.

صدَّقتها، أما هي.. وبالمال الذي استقطعه أبي لإصلاح سنِّي، جدَّدت فرش الصالون.

آه ولكن ماذا عن الجثة!

***

-3-

صديقتي سونيا

يجب أن أتخلص من الجثة.

هل أطلب من بثينة جارتي المساعدة؟

يمكنني رد الجميل لها في زوجها، فلا يزال لديَّ التمثال الآخر. ولا أظنها ستمانع في التقاط قطعه المتناثرة، بل ستفرح! ونتخلص من الجثتين معًا..

أم ستخاف؟

ولكن أين التمثال الثاني؟ كان هنا فوق رف المكتبة.. غريبة!

لم يعُد أمامي سوى لف الجثة جيدًا وإقناع بثينة بأنها جثة كلب هاجمني فهشمت التمثال على رأسه. وهو بالفعل كلب.. وإلا فبِمَ تنعتون مَن ترك زوجته ليلة الزفاف ومضى؟

لا، الكلاب مخلصة، لن نظلم الكلاب.

وحده جدِّي كان يعطف عليَّ ويُعطيني الكثير من الحلوى كلما رآني.

يملأ كفَّي الصغيرتين بحلقات النعناع المفرغة البيضاء،

أمصُّ واحدة فأجدها لاذعة جدًّا، أبصقها في يدي وأضعها في جيبي. بعد قليل أُجرِّب حبَّة جديدة، لعلها تكون أقل لذوعة، فأجدها مثل سابقتها، فأبصقها وأضعها في جيبي، وهكذا..

ثم تصرخ أمي بسبب جيوبي الدِّبْقة كلما زارنا جدي.

ماذا كانت تريد مني أن أفعل إزاء عطاياه؟

أرفضها؟

وهي مغلفة بكل هذا الحب؟

لم أحب حلوى النعناع يومًا، وإنما أحببت الحُب الذي كان يأتي معها.

جرس الباب يدق..

الجثة!

سألفها في السجادة سريعًا ثم أفتح الباب.

إنها أم فتحي جارتي بجلبابها المزين ببقع السمن والصلصة كالمعتاد، وشعرها الذي يفوح ثومًا.. كالمعتاد.

ما الذي أتى بها؟ هل تشاجرت مع زوجها من جديد؟ ربما بسبب نظراته المفضوحة تجاه زوجة الحارس الخمسينية، أو

ربما بسبب باب الثلاجة المفتوح.

أتت أم فتحي كي تفرغ انفعالاتها عليّ كالعادة، فمنذ أن تبقَّت لها طلقة واحدة مع زوجها، أصبحت تتجنبه وتوجِّه انفعالاتها بعيدًا عنه، وأنا الوجهة المثالية!

سوف تطربني الآن بإحدى أسطواناتها المشروخة عن حمَّامي الذي ينقط على حمَّامها، أو غسيلي الذي ينقط على غسيلها، مع أني لا أغسل إلا نادرًا.

آه لقد رأت السجادة الملفوفة.. تُحدِّق بها!

يجب أن أُشتت انتباهها.

شوال الطماطم!

هاهاها.. ما إن رأته في يدي حتى انقشعت كغيمة ليلة صيفية صافية!

سلاح لا يُستهان به شوال الطماطم هذا.

والآن فلأفتح عن حبيبي السجادة فلا بد أنه يشعر بالاختناق!

كما أنني افتقدت النظر إلى وجهه!

أين ذهب رقم تاجر الأعضاء الذي كنت أحتفظ به؟

لا مفر من الاستعانة بخدماته رغم خلافي الأخير معه..

أراد الحصول على جثة رفيقة سكني مجانًا، قائلًا إنني أنا التي أحتاج له لتصريفها، وأضاف متبجحًا أنه يستطيع الحصول على مثلها بسهولة من الشارع!

كان يحاول الفصال لا أكثر، وإلا فمن أين له بأنثى بيضاء جميلة لذة للناظرين مثلها؟

يقول إن المواصفات الشكلية لا تهم حين يتعلق الأمر بتجارة الأعضاء. وأنا أختلف معه، لو لم يكن الشكل مهمًّا، لماذا تركني غالب في ليلة الزفاف؟

سخافة التاجر جعلتني أُعرض عن التعامل معه حينها، فاضطررت لتقطيع سونيا قطعًا صغيرة على مدى أيام، كانت مهمة ثقيلة، خاصة بسبب ضعف أوتار يدي، وإصبع سبابتي المفتتة عظامها.

هان تعبي كله حينما رميت بقطع سونيا إلى كلاب الشارع الضالة وراقبت فرحتها.

أحبتني الكلاب.

لم يتحمل الجيران حبهم الصادق لي فأردوا الكلاب بالسم واحدًا تلو الآخر. لم يعُد بوسع البشر تحمُّل المشاعر الصادقة

إذا صادفوها. إنها تؤذيهم.. تذكرهم بفقر مشاعرهم وزيفها!

آه ولكن الجثة!

***

-4-

شبحي الأسود

الجثة!

يجب أن أتصرف سريعًا قبل أن يأتي عم حامد، فموعد زيارته قد اقترب.

زوجي ليس سيئًا جدًا في النهاية. فبرغم أنه تزوجني تنفيذًا لوصية جدي، وطمعًا في نصف ميراثي منه، ثم أخذه كله حينما جعلني أوقِّع على التنازل عن نصيبي قبل أن يوقِّع هو على القسيمة.. ثم ذهب بالورقتين ولم يترك لي شيئًا.. إلا أنه كريم حقًّا...

يرسل لعم حامد مبلغًا شهريًا، يعطيني جزءًا منه، ويشتري بالباقي لوازم البيت.

هل رأيتم زوجًا حنونًا وملتزمًا أكثر من زوجي؟! يحمل همي حتى في غيابه عني.

لطالما كان حنونًا. كان يلاعبني ونحن صغار. كلما زارنا سألني: هل تريدين ساعة؟

أتحمس وأومئ له بالإيجاب، فيعض رسغي عضة شرسة

ينخلع لها قلبي وتنفجر بسببها دموعي. يخاف أن يسمع جدي بكائي فيلومه، يهدهدني قائلًا: لا تبكي، ها قد حصلتِ على ساعة.

أنظر للعلامات على رسغي، وأكفكف دموعي ممتنة. كان يترك لي كل مرة ساعة جديدة.

ثم يسألني الطبيب عن سر ضعف أوتار يدي!

والآن..

أنظر إلى الجثة الممددة أمامي، أتأمل ملامحه الخشنة وشعره الكثيف وتكوين جسده الغريب. أتخيل تلك المذيعة صفراء الشعر منتفخة الشفتين وهي تُقرِّب مني الميكروفون، تسألني في تشفٍّ بادٍ: «ندمانة؟»

وأتساءل بدوري: «ندمانة؟»

لا أعلم.

لقد احترقت مشاعري منذ زمن، لم أعد أميز الندم.. عن الحزن.. عن الحب!

حرقوها عن آخرها، حتى التمييز بينها سلبوني إيَّاه.

لطالما كنت مخلصة له أنا الأخرى، أحلق شعره الكثيف، أُعد له الطعام الذي يُحبه، وأُغنِّي له في الأمسيات.

هل كنت أُغنِّي له أم لنفسي؟

كثيرًا ما تمنيت أن تهدهدني أمي مثل أمير.

ولكن بالطبع الكبير لا يُهدهَد، ولا يحق له أن يستمع لقصة قبل النوم، فالقصص للصغار فقط كما تعلمون.

وأنا كنت كبيرة، في الصف الثاني الابتدائي.

كبرت الآن حقًّا..

وصادقت بطل كوابيسي، الشبح الأسود ذي الأنياب الحادة الذي كان يخيفني في منامي، عفوت عنه وصادقته لأنه لم يعُد يزورني ويؤنس وحدتي سواه.

ها قد انشغلت بالكلام مجددًا ونسيت الجثة..

ماذا أفعل بها الآن؟

***

-5-

ندى

أطفأت ندى مصباح القراءة الصغير، ووضعت أوراق الست نجيَّة جانبًا وهي لا تستطيع إيقاف دموعها. حاولت كتم نشيجها كي لا توقظ أختها الصغرى النائمة في الفراش المجاور لها، ولكنها فشلت. تعالى نشيجها فأسرعت بوضع الغطاء فوق رأسها، إلا أن صوت شيرين الغاضب سرعان ما أتاها:

- ندى، حرام عليكِ، أيقظتني من ألذ حلم..

- ...

- ماذا بكِ؟ أهو طارق مرة أخرى؟ قلت لكِ إنه لا يستحقك، ماذا فعل؟

لم تتلقَّ شيرين سوى نشيج متقطع فاعتدلت في فراشها وأنارت المصباح الصغير الموضوع على الطاولة بينهما وهي تسألها في رفق يشوبه القلق:

- ماذا حدث؟

اعتدلت ندى بدورها وأشارت في صمت إلى الأوراق

التي تجعدت بفعل دموعها، أو ربما بسبب دموع صاحبتها الأصلية. ظهر على شيرين عدم الفهم، فكفكفت ندى دموعها وقالت بنبرة حزينة:

- السيدة التي كتبت هذه الأوراق.. لقد تألَّمت كثيرًا في حياتها.

قلبت شيرين في الأوراق قليلًا ثم قالت:

- سيدة! هذا الخط الكبير المتعرج لا يمكن أن يكون لشخص بالغ.

- بل هي سيدة، في الأربعين من عمرها أو أقل قليلًا، وهي مُتَّهمة أيضًا، كلفني الأستاذ مجدي بكتابة تقرير صحفي عنها.

- الأستاذ مجدي؟ تقصدين خالنا مجدي؟ لماذا يختار لكِ دومًا القضايا التي تقطع القلب، وأنتِ أرق واحدة في العائلة.

- أنا التي طلبت منه.

قالتها ندى في قلة حيلة وهي تستعد للمعركة الكلامية المعتادة مع شيرين التي ترى أن الكتابة في باب الحوادث ما هي إلا باب للحزن ووجع القلب. فشيرين ذات الشخصية الجريئة المنطلقة كانت تفضل لو اختارت أختها مجالًا مبهجًا وخفيفًا مثل موضوعات التجميل أو تغطية أخبار الفنانات

والفنانين. لكن ندى كانت تختار دومًا الموضوعات الأكثر جدية، آملة أن تنفعها في دراسة الماجستير التي قامت بتسجيلها منذ عدة أشهر. فأغوار النفس الإنسانية ودوافعها كانت دومًا تثير شغف ندى. وإن كانت شيرين قد اختارت العمل كمضيفة جوية كي تجوب البلدان وتشاهد عجائب الدنيا، فاختيار ندى كان دومًا منصبًّا نحو الداخل، نحو أعماق الإنسان الخفية.

قطعت شيرين أفكار أختها قائلة:

- احكِ لي حكاية صاحبة الأوراق إذن، فهذا أقل عقاب لكِ بعد أن طردتِ النوم من عيني.

نظرت ندى لأختها التي وضعت الوسائد خلف ظهرها ثم لملمت شعرها المتمرد بيد، وبالأخرى صدت سيلًا من التثاؤب المتتالي، فأدركت أنها لن تستطيع إثناءها عمّا طلبت. دعكت عينيها محاولة صرف النوم عنهما وأمسكت بالأوراق تمسدها بين يديها وهي تقول:

- اسمها نجيّة، تعيش وحيدة، مريضة نفسيًّا، وجدوا جثة متحللة في شقتها.

برقت عينا شيرين وهي تهتف:

- جثة! جثة مَن؟

- بعد أن أُكمل قراءة الأوراق سأحكي لكِ الحكاية كاملة.

- تفضلي.

انصاعت شيرين مرغمة وهي لا تطيق صبرًا.. أما ندى فأطلقت تنهيدة قصيرة وهي تقلب في الأوراق حتى وجدت الجزء الذي وقفت عنده، فاستأنفت القراءة، وهي تتساءل في وجل:

- ترى.. ماذا فعلت نجيَّة بالجثة؟

***

-6-

أشياء قديمة لا قيمة لها

أحب الذباب الجثة وأحاط بها.. الله يرحمه كان محبوبًا.

حاولت كثيرًا أن أهش عنه تلك الحشرات اللحوحة، ولكنها مصرة على الإقامة على جسده، إقامة ممتعة إذن.

آه ولكنْ عيناه..

لماذا أعتمت عيناه الزمرديّتان وفقدتا بريقهما الآسر؟ ولماذا بدأ بطنه بالارتفاع؟

أهي غازات بسبب وجبته الأخيرة؟ ربما..

لقد نفد مني مخزون الطماطم في ليلةٍ واحدة، فـ «التنشين» في الظلام أصعب بكثير.

يتعين عليّ الخروج لشراء غيرها، كم أكره رحلة النزول إلى الشارع، ولكن لا بأس هي بضع خطوات للخضري لا أكثر.

سيحتفي بي أطفال الشارع كالعادة مرددين: «أُمنا الغولة طقطقي الفولة بتعملي إيه؟ باسرَّح شعري»

ليتني أستطيع تسريح شعري. إنه كتلة واحدة شائكة لسنوات خلت، حتى الماء لم يعُد ينجح في تخلُّله.

حينما كنت صغيرة، كان شعري ناعمًا وطويلًا. ظل كذلك حتى غطست في المجاري.

تسألون عن السبب الوجيه الذي يجعل فتاة عاقلة تغطس في المجاري؟

كنت ألعب مع أبناء عمومتي في الشارع، فطلب مني غالب، الذي أصبح فيما بعد زوجي الغائب.. طلب مني بعينيه الزمرديتين الخلابتين أن أقفز في المجاري. أكان غالب؟ أم إن أخي أمير هو مَن طلب؟

أن أقفز في المجاري! قد يبدو لكم طلبًا غريبًا، ولكنه لم يبدُ لي كذلك، كانوا يعتمدون عليّ في إنقاذ ساعة غالب الثمينة التي ألقتها غالية في البالوعة.

لم أتردد في القفز.. من أجل حبيبي..

وضع غالب على أنفي – مشكورًا - مشبك غسيل خشبيًا عطنًا، وقفزت..

ارتطمت قدماي بالسطح المتماسك اللزج، الذي ما لبث أن انفتح تحت قدمي لأغوص إلى أسفل.. إلى أسفل.. وفي الخلفية أصوات ضحكات لا تُحتمل.

بدأ جسدي يغطس في السائل المعتم حتى كاد يلفني

الظلام. صرخت.. لم يأبهوا لصراخي وظلوا يتغامزون.

ظللت أضرب بذراعي سطح المجاري وأكافح ثقلها ولزاجتها التي تسحبني إلى أسفل، والقطع الكريهة تعلق بوجهي وشعري وجلدي..

حاولت مرارًا.. ثم لم أجد بُدًّا من الاستسلام.. أغمضت عينَي ورفعت ذراعَي إلى أعلى تاركة جسدي ينساب إلى أسفل في سلام.. لتحتضنني المجاري في حنوٍّ وينغلق سطحها فوق رأسي.

لا أعلم كيف أخرجوني!

سمعت أصواتًا وشعرت برجَّة، فتحت عينَي لأجدني بداخل أكياس قمامة سوداء محمولة على الأعناق إلى أمي.

أمي الطيبة التي قاست مرارًا بسبب تصرفاتي السيئة.

كانت رائحتي النتنة تسبقني. ما إن رأتني أمي حتى لطمت وجهها وصرخت فيمَن يحملونني قائلة: «ارموها في أي مقلب زبالة، لا أريدها»!

نظروا إليها في بلاهة، ثم رموني على عتبة باب بيتنا، وذهبوا.

علا صراخ أمي وبدأت تولول.. أتت أم بسنت على صوتها..

رأتني.. صرخت بدورها.. أتت أم عباس.. كانت أكثر حنكة منهما فلم تصرخ، بل أخبرت أمي بخطة العمل في هدوء: «دعيها تدخل وتُحمِّم نفسها، ثم تنظف الحمَّام من آثارها باستخدام الفنيك ثم اضربيها علقة موت كي لا تكررها ثانية».

نفَّذت أمي الخطة بحذافيرها.

استحممت.. ظللت قرابة الساعتين أحاول تنظيف شعري الناعم الطويل من قطع الفضلات المتعلقة به.. كلما خرجت من الحمَّام، صرخت أمي من الرائحة وأدخلتني ثانية، ست ساعات من الاستحمام، ومع ذلك ظلت رائحتي نتنة كبالوعة المجاري الطافحة دومًا على أول شارعنا.

بكيتُ راجية أمي أن تسامحني، وأن تساعدني في تخليص شعري ممَّا علق به. نظرت نحوي بذعر ممزوج بالقرف، سرعان ما تواريا خلف نظرة لامعة صاحبتها ابتسامة غريبة.

قالت إنها ستضرب عصفورين بحجر، عملية مزدوجة، تُخلِّص فيها شعري وتعاقبني في آنٍ واحد.

أتت بشمعة بيضاء طويلة، وبمنشقة مبللة، ثم كبلتني بفخذيها وأشعلت الشمعة، وبدأت تُعرِّض أطراف شعري لشُعلة الشمعة ببطء، وكلما أمسكت النار في شعري، أطفأتها

بالمنشفة المبللة.

تساءل أمير عن مصدر رائحة الشياط المقززة التي ملأت البيت، قالت له: «أتخلص من أشياء قديمة لا قيمة لها»!

كانت تتكلم عني..

وفي الصباح، حينما رأتني وشعري المهوش «الشايط» ينتشر حول رأسي، أومأت برأسها وابتسمت لنفسها في استحسان.

في ذلك اليوم، أخذوا يسخرون من شكلي ورائحتي في المدرسة.. يمزقونني بكل ما يملكون من نظرات وإشارات وكلمات. اعتزلني الجميع. كانوا يبتعدون صارخين كلما اقتربت.

وأناملي، ظلت تفوح برائحة البراز المتعطّن لأيام.. كلما أكلت شيئًا، امتزجت معه تلك الرائحة فزكمت أنفي وقلبت بطني.

معذرة.. لقد صدعتكم بحكاياتي المملة التافهة.

ها هو الخضري، ولديه «مشنّة» كاملة من الطماطم المتعفنة من الدرجة الأولى، أعدّها لأجلي.

أدفع فيها الضعف، فالطماطم المتعفنة أغلى ثمنًا كما

أخبرني، ولكن بها مزية عدم الانتظار، فهي جاهزة على التصويب.

آه ولكن ماذا عن الجثة؟!

***

-7-

الجلاد القابع في الظلام

الذباب اللعين يتكاثر، ماذا أفعل؟

لو كانت سونيا هنا لنصحتني.. كم أفتقدها!

كلامها لم يكن كثيرًا.. دومًا منصتة.. وبإيماءة من رأسها الجميل كنت أعرف رأيها.

شعرها كان طويلًا وناعمًا، تمشي مختالة به، ترفعه حينًا وينساب حينًا. تترك منه خصلًا في كل مكان حولي، أجمعها في الخفاء وأحاول وصلها بشعري، ولكن لا فائدة.

أفتقد أحضانها الطيبة، وأمسياتنا الدافئة المليئة بالحكي.

لولا شعرها..

والآن ماذا؟

هل أخلع عنه ملابسه وأنظف جسده المنتفخ حتى يذهب عنه الذباب؟

دومًا ما كان وسيمًا ببذلته كحلية اللون وربطة عنقه الحمراء وقميصه الأبيض، تمامًا كما رأيته ليلة الزفاف.

لقد أصبح خلع الملابس عنه صعبًا بعد انتفاخه. عاندتني ربطة العنق وبالكاد خلعتها، وتفسخت أزرار القميص.

ماذا أكل المرحوم لكل هذه الغازات!

ولماذا يبدو وجهه مختلفًا؟ ذهبت عنه التجاعيد وعاد شبابًا، هل قام بعملية شد مؤخرًا؟

أو ربما هذا بفعل إكسير الحب، حبنا.. وما هذه الكدمات الغريبة بجسده؟ هل تعرض لشجار؟ ولكنه لم يكن يخرج من المنزل.

هل قام صديقي الشبح بتأديبه؟ إنه يستحق التأديب بالطبع، وإلا فما هو الجزاء العادل لمَن يرفض ارتداء الشبشب في المنزل؟ أو لمَن يترك نقاطًا من البول على قاعدة المرحاض!

لقد أخرج جسده فضلات.. لهذا اجتمع عليه الذباب. لا بأس، سأنظفه وأعتني به كطفل صغير، لطالما تمنيت طفلًا، سيكون هو طفلي، هيّا يا حبيبي هيًّا..

دومًا تعوقني إصبعي المكسورة عن العمل، ولكني استحققت هذا الكسر عن جدارة، فأنا أذكر ذاك اليوم جيدًا.

كنَّا في المدرسة، وأتت آيات ترتدي سوارًا ذهبيًّا جديدًا،

حلقات مصقولة متصلة ذات لمعة أخاذة، كان جميلًا حقًّا. قالت إن أباها قد أهداها إياه.

ذكَّرتها بأنه ممنوع ارتداء الذهب في المدرسة، قالت لي بابتسامة واثقة وحاجب مرفوع:

- ليس على عائلة الخازندار حبيبتي.

تعلمت يومها أن آيات ليس ممنوعًا عنها شيء. فهي من عائلة الخازندار.

بنهاية اليوم كانت آيات تبكي وتدبدب بقدميها، والسوار قد اختفى.

جرَّت المديرة طالبات الفصل بأكمله إلى مكتبها. وهناك وجدنا الأستاذ معاطي متواريًا في أحد الأركان، وبيده مسطرته الحديدية الأثيرة، يضرب بها برفق على كفه، وينتظر.

كانت المديرة لطيفة.. أوقفتنا في طابور وأخذت تحوم حولنا وتسأل كلًّا منَّا بصوتٍ ناعم:

- هل أخذتِ السوار؟ رأيتِه فأعجبكِ مثلًا وأردتِ أن تستعيريه؟ لا بأس سنتفهم.

عادت تقف أمام كل واحدة منَّا وتسألها في تؤدة وإن

تغيرت نبرتها قليلًا فأصبحت أكثر صرامة وأقل لينًا: «أهي أنت؟ هل ستعترفين؟»

ثم تقف في المنتصف وتشير إلى آيات الباكية منتفخة العينين وتقول بتعاطف:

- فكروا في آيات صديقتكم؟ ما ذنبها؟

ثم تشير فجأة لإحدانا سائلة: «هل هي أنت؟»

وتقول بجدية: «مَن ستعترف سنسامحها. ستعيد ما أخذت وينتهي الأمر».

كانت تختلس النظرات إليّ أكثر من الأخريات.

أنا لم آخذ السوار، ولم أكن أعلم مكانه، ولكن.. ولكن نظراتهم لي، ونبرة المديرة الناعمة المستدرجة جعلتني أشعر بأنها... بأنها ربما تكون أنا.

بدأت أتساءل في قرارة نفسي: «هل أخذته ونسيت؟»

أذكر أنني رأيته وأعجبني، بل وتمنيت أن يكون لديَّ مثله، فهل أخذته؟ أنا دومًا أتصرف بطريقة خرقاء وأقترف الأخطاء، أنا المرشحة الأولى لأي مصيبة..

ولكن لا.. لم أفعلها..

أنا متأكدة.

خرجت من فمي همهمة غير مفهومة فالتمعت نظرة المديرة.. اقتربت منّي، وقبل أن أتكلم أخرجت بقية الفتيات من غرفة مكتبها وأغلقت الباب ثم نظرت إليّ قائلة:

- لا تقلقي، ستعيدين ما أخذتِ وينتهي الأمر.

جعلتني نبرتها اللطيفة غير المعتادة أضطرب أكثر ممّا لو كانت تصرخ!

اعترفتُ لها بأني لا أعرف مكانه.

تبدّلت نظرتها وتوحّشت. أومأت لجلّادها القابع في الظلام، تقدّم مني أستاذ معاطي ملوّحًا بالمسطرة الحديدية. عيون الذئب الصفراء اللامعة والزَّبَد يسيل من شدقيه وهو يقترب.. ليطبق بفكيه على أحشائي.

انتابني الرعب وتلعثمت، هربت منّي ذاكرتي وكلماتي ولم أعُد أذكر شيئًا.

آه ولكن الجثة!

***

-8-

لأنها تحبني!

ما هذه الرائحة؟

إنها أبشع كثيرًا من رائحة الطماطم المتعطنة، وأسوأ كذلك من رائحة المجاري..

إنها أشبه برائحة الفأر الذي أعطته لي زميلاتي ملفوفًا على أنه زر بطاطا، فوضعته في حقيبتي المدرسية ونسيته حتى تحلل وفاحت رائحته وتجنبني الجميع.. ثانية.. أو ربما عاشرًا!

آه الذباب ثانية!

لقد تجمع مجددًا على المرحوم برغم اهتمامي بنظافته ومسح جسده الذي ازرقَّ لونه بالمناشف المبللة.

لماذا انتفخت عيناه هكذا؟

ولسانه.. لماذا تضخم وخرج من فمه؟

أهو جوعان؟

تبًا لي، لقد نسيت الموزة!

لقد شغلتموني بالكلام حتى تيبَّست أصابعه عليها، لن أستطيع استرداد موزتي من قبضته إلا «مفعوصة»..

كنت أعلم أنها ستجتذبه ولا ريب ولكني لم أتوقع أن أخسرها بالكلية!

عم حامد لم يأتِ.

يبدو أنه سيفوِّت أسبوعًا أو اثنين كعادته، سأقضيهما دون طعام يذكر، ثم يأتي ويقول: «لم يمر سوى أسبوع»، فأصدقه وألعن ذاكرتي.

خسارة! الموزة كانت ستنفعني.

فلنعد إلى الجثة..

هل أحتفظ بها؟

سيسرني النظر إلى وجهه من آن لآخر..

ولكن لا، وجهه يتغير وينتفخ، لن أتحمل ذلك.

لِمَ أرديته قتيلًا وقد كان نعم الرفيق؟!

التفاهم بيننا كان صعبًا لا أنكر، ولكننا مضينا سويًا. كان وسيمًا وهو يتحرك في البيت ببذلته الكحلية وربطة عنقه الحمراء.

لقد شغلتموني بالكلام حتى تيبَّست أصابعه عليها، لن أستطيع استرداد موزتي من قبضته إلا «مفعوصة»..

كنت أعلم أنها ستجتذبه ولا ريب ولكني لم أتوقع أن أخسرها بالكلية!

عم حامد لم يأتِ.

يبدو أنه سيفوِّت أسبوعًا أو اثنين كعادته، سأقضيهما دون طعام يذكر، ثم يأتي ويقول: «لم يمر سوى أسبوع»، فأصدقه وألعن ذاكرتي.

خسارة! الموزة كانت ستنفعني.

فلنعد إلى الجثة..

هل أحتفظ بها؟

سيسرني النظر إلى وجهه من آن لآخر..

ولكن لا، وجهه يتغير وينتفخ، لن أتحمل ذلك.

لِمَ أرديته قتيلًا وقد كان نعم الرفيق؟!

التفاهم بيننا كان صعبًا لا أنكر، ولكننا مضينا سويًا. كان وسيمًا وهو يتحرك في البيت ببذلته الكحلية وربطة عنقه الحمراء.

لن أنسى حنانه وهو يغسل لي الصحون ويجففها، وينشر لي الملابس.

آه ولكن الجثة!

***

-9-

في الجريدة

كان النهار قد انتصف حينما دلفت ندى إلى مقر الجريدة الذي يقع في شقة صغيرة بالدور الأول من بناية متهالكة على ناصية أحد الشوارع الداخلية المتفرعة من شارع قصر العيني. لم تجد في بهو الجريدة مقعدًا شاغرًا لها. اعتادت لعبة الكراسي الموسيقية اليومية، وقد أدركت منذ أيامها الأولى في الجريدة صعوبة حياة الصحفية تحت التمرين، فلا مكان لها، ولا خصوصية، ولا يُكتب اسمها على ما تجتهد فيه من موضوعات.. «الترويسة» دومًا من نصيب الأسماء الكبيرة. ولكنها قبلت تلك الأوضاع دونما تذمر مدركة أنها مرحلة مؤقتة حتى تتفرغ لحلمها في مساعدة أبطال المرض النفسي. لذلك شكلت قضية نجيَّة بالنسبة لها تحديًا على جميع الأصعدة.

إن حققت السبق الصحفي الذي ترجوه فربما تتغير قواعد اللعبة في مقر الجريدة، وتحظى بمقعد ومكتب، وقد يُكتب اسمها على التقرير. كما ستكون نواة لرسالتها التي تعمل عليها جاهدة.

سحبت مقعدًا بلاستيكيًا بلا ظهر ووضعته بجوار إحدى

الطاولات الخشبية التي تحتلها دائمًا وأبدًا مدام كوثر بزينتها المبالغ فيها وجسدها الضخم الرجراج وحقيبة يدها الجلدية الأكثر ضخامة والتي تُخصص لها مقعدًا بدورها.

انتبه طارق لحضور ندى فاقترب منها ثم جلس على طرف المكتب أمامها. لم تدرِ لِمَ شعرت بتوتر يتصاعد في أحشائها. بادرها هو بسؤاله:

- ما الذي أخَّرك؟

همَّت بأن تحكي له تفاصيل يومها وسبب تأخيرها، ثم تذكرت آخر مكالمة بينهما، وكم كان صفيقًا معها.

يكبرها طارق ببضع سنوات ويرأس قسم الحوادث بالصحيفة. يظن أن ذلك يُخوِّل له ممارسة دور الوصي عليها، ليس فقط كزميل أو مدير لها في الجريدة، وإنما كحبيب فرض نفسه. بدأ بالتقرُّب إليها منذ يومها الأول في العمل، واستجابت هي له دونما مقاومة تُذكر، فتجاربها التي تكاد تكون منعدمة وأسلوبه المنمق في الكلام وثقته المفرطة بنفسه أبهرتها. ثم.. يومًا بعد يومٍ بدأت تشعر بالاختناق!

- ألن تجيبيني؟

قطع حبل أفكارها بصوته الحاد، رفعت رأسها ونظرت إليه تتأمل ابتسامته الواثقة التي تراقصت على شفتيه، كم تحبها،

بل تكرهها. ما هذا الجنون؟ لا ريب أنه الحب، أليس الحب جنونًا؟ ولكن شيرين لا تفتأ تردد عليها أن الحب لا يمكن أن يكون عبئًا على صاحبه.. فالحب حرية كما تقول.

حرية!

هذا أبعد ما يكون عن وصف علاقتها بطارق. حتى إنه قد بدأ يُضمر العداء لشيرين إذ لاحظ أن ندى تكون أكثر طوعًا أثناء ابتعاد شيرين على متن رحلة من رحلاتها، وتكون عصية أكثر حينما تكون شيرين بالجوار. وقد ألمح لها أن شيرين هي النسخة الأقوى والأكثر حدَّة منها برغم أنها تصغرها بعامين.

- ندى، أين نحن من تقرير السيدة نجيَّة؟

التفتت صوب الصوت فوجدت رئيس التحرير واقفًا على مقربة والبخار يتصاعد من كوب الشاي الذي لا يكاد يفارق يده. قام طارق من فوره مخاطبًا إيَّاه في جدية:

- كنت أتابع معها المستجدَّات.

ثم وجَّه كلامه لندى قائلًا:

- إن كانت القضية صعبة فلا تترددي في طلب المساعدة.

- شكرًا.

قالتها مقطبة ثم وجّهت بصرها نحو خالها وأردفت موضحة:

- لقد قرأت الأوراق التي كتبتها نجيَّة، ولديّ تصور للمرض الذي تُعاني منه. أنتظر منك تزويدي ببقية الأوراق وصورة من المحضر كي أنتهي من إعداد التقرير. كما أحتاج لإذن من النيابة لزيارتها.

- أعددت لكِ الأوراق، مُرّي عليّ في مكتبي قبل رحيلك.. وبالنسبة لإذن النيابة، بسيطة، المقدم عاصم حبيبنا وسيُسهل لكِ الأمر.

قالها الأستاذ مجدي ثم ابتعد، فوضعت ندى وجهها في إحدى الجرائد متجاهلة طارق الذي ضيّق عينيه متمتمًا في خفوت:

- المقدم عاصم!

***

-10-

زجاجات عطري الثمينة

الرائحة لا تُطاق، وحبيبي تغير شكله واخضرَّ بطنه..

لن أتحمل رؤياه هكذا، سأسحبه بالسجادة إلى الحمَّام وأغلق عليه الباب.

ولكن ماذا عن الرائحة؟

لا مفر إذن.

زجاجات عطري الثمينة التي احتفظت بها طيلة خمسة عشر عامًا دون أن أبخ منها «بخة» واحدة. أتأملها يومًا بعد يوم، وهي مرصوصة على الرف بعناية، زجاجات شفافة جميلة تحوي سوائل وردية وذهبية وفضية رقراقة.. أنتظر في صبر وأناة اليوم الذي سأتعطر فيه من أجله.

وها قد أتى اليوم.

سأسكب كل عطوري عليه.

صحيح أنني لن أتعطر بها، ولكنها في النهاية كانت من أجله، فلا يهم إن تعطرت بها أنا، أم تعطرت بها جثته.

صوت تكسير الزجاجات مُرضٍ ومريح للأعصاب، يضاهي

متعة التصويب بحبات الطماطم، بل ويتفوق عليها.

تلك الجزيئات الكريستالية المتلألئة تناثرت في كل مكان، وعكست ألف لون.

أستنشق بعمق فأشم الروائح الزكية تمتزج وتتصاعد فتطغى على كل رائحة أخرى.

لا بد وأنكم تتساءلون بحلول هذا الوقت لماذا هشمت التمثال على رأسه وأنا أحبه كل هذا الحب؟

سؤال مشروع، والإجابة: لقد ربَّت حدبتي. رآني أبكي، فاقترب مني، وربَّت حدبتي مرتين ثم نظر لي وابتسم.

أعلم هذه الابتسامة جيدًا وأحفظها عن ظهر قلب.

مهما تغلفت بالحب أو التعاطف، أعرفها.. ابتسامة السخرية المقيتة.. كان يهزأ منّي ومن حدبتي.

تحملت سخرية كل الناس، كلهم..

من شكلي البائس وشعري المهوش وسنِّي الناقصة وحدبتي الظاهرة وإصبعي المكسورة ورائحتي النتنة وجوربي المتهرئ.

لكن أن يسخر مني هو..

أن يربِّت الشخص الوحيد الذي أحببته حدبتي!

كان هذا أكثر ممَّا يمكنني تحمله، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أهشم التمثال على رأسه.

المسكين..

ومسكينة أنا، حرمت نفسي من ونسي الوحيد في لحظة غضب!

لم يعُد لديَّ أحباء..

ولا دروع.

فقدتهم جميعًا.

طرقات على الباب..

آه ولكن الجثة!

***

-11-

قرد عينه خضراء!

تُرى مَن الذي يطرق الباب؟ أهي أم فتحي ثانية؟ أم لعله عم حامد.

فلأغلق باب الحمَّام أولًا، رائحة العطور سرعان ما تتقهقرت خائبة أمام سيطرة رائحة المرحوم.

فتحت الباب لأجد أمامي شابة رقيقة الملامح رشيقة القد تحمل حقيبة ضخمة، وتضع مشبكًا بلاستيكيًا أنيقًا على أنفها.

أخبرتني بصوتٍ أخنف ونبرةٍ سريعةٍ أن اسمها جُمانة، وأنها قد سمعت عنِّي من الجيران.

تُرى ماذا سمعت؟

قالت كلامًا عن مسابقةٍ ما، وعن شركة مستحضرات تجميلية، وعن تصوير، كما ذكرت كلمات مبهمة مثل (بيتيفور آند حفتر)، وفي النهاية رجتني أن أقبل.

لم أفهم ماذا تريد، ولم يهمني من كل ما قالت سوى أنها تفوهت بكذبة لا تُغتفر..

قالت إنها ستجعلني جميلة!

هذه أسوأ كذبة سمعتها في حياتي. وأكثرهم صفاقة على الإطلاق.. أسوأ من كل أكاذيب غالب.

وأكثر تدليسًا من أكاذيب شركة المحمول بخصوص الهدايا والعروض. وأكثر بجاحة من إعلان الدهان الذي قال إنه سيجعل لوني أفتح، فاستخدمت منه خمسة عشر أنبوبًا، ليظل لوني كما هو.

كيف تجرؤ تلك الـ «جُمانة» على الادعاء بأنني يمكن أن أكون جميلة؟

أنا قبيحة.. وسأظل قبيحة. شكلي قبيح، صوتي قبيح، أفكاري قبيحة، أفعالي قبيحة..

حتى اللا شيء الخاص بي.. قبيح!

هممت بإغلاق الباب في وجهها ولكنها وضعت قدمها في فتحة الباب ببجاحة ودخلت، جذبتني من يدي وأغلقت الباب من خلفها ثم أجلستني على المقعد المواجه للنافذة قائلة: سنحتاج للضوء..

أخرجت هاتفها المحمول، وصورت وجهي من عدة زوايا. أنظر إليها في غيظٍ مكتوم، غير مصدقة أنني استسلمت لها!

سحبت مقعدًا وضعته أمامي ورفعت فوقه حقيبتها ثم فتحتها ووضعت «فيشة» ما في الكهرباء، فسطع ضوء باهر أغشاني.

كان باطن الجزء العلوي للحقيبة عبارة عن مرآة كبيرة، محاطة بمصابيح مضيئة مثل المرايا التي نراها في غرف الممثلات، أما الجزء السفلي من الحقيبة فكان مقسمًا إلى مربعات مختلفة الأبعاد ومكدسًا بمستحضرات التجميل المختلفة.

بحرفية وسرعة، أخرجت جُمانة من حقيبتها أقلامًا ملونة وعلبًا وأنابيب، ضبطت موضع الحقيبة المرآة لتصبح أمام وجهي تمامًا.

وقعت نظرتي عليها سهوًا.. فأصابتني الغُصَّة إيَّاها.

لسنوات وأنا أتفادى رؤيتي في أي مرآة. لا أتحمل كل القبح الذي يطالعني.. أغمضت عيني مسرعة، فعلَّقت جُمانة بنبرةٍ متحمسة:

- هكذا أفضل.

بأنامل رقيقة، بدأت توزيع مرهم ما على بشرتي، تسللت رائحته الرقيقة إلى أنفي فشعرت بخدر خفيف يغزوني. وضعت بعدها طبقات عديدة من معجونٍ ما حول عيني

قائلة إن ذلك سيُخفي جحوظي. لم أصدقها.

شعرت بها تضغط بشيءٍ مثل سن القلم، ضغطات خفيفة متكررة على منابت أهدابي، إن كان لي أن أسمي تلك الشعيرات الناتئة البائسة، أهدابًا!

استمرت بأطراف أناملها في دهن المزيد من الطبقات، ثم قامت بنثر مساحيق مختلفة باستخدام فرشاة ناعمة.

لمسات رقيقة حانية استسلمتُ لها.. واستمتعتُ بها.. قبل أن أدرك في بؤس أن هذه أول لمسة حانية أتلقاها منذ سنوات نسيت عددها.

لم أُرد لتلك اللحظات أن تنتهي..

مر الوقت بخفة حتى سمعت صوت تصوير الهاتف وارتأيت وميض «الفلاش» الخاص به من خلف جفوني المغلقة. قالت جُمانة في سعادة: «افتحي عينيكِ».

أفتح عيني؟ تسارعت دقات قلبي، وتجمع بداخلي خوف هائل ممّا سأرى.. خوف من المجهول.

حاولت بكل ما أستطيع، ولكنني لم أقوَ على رفع جفنَي إلى أعلى. حثتني جُمانة بصوتها الرقيق الأخنف، فأغمضت عينَي بقوة أكثر. ضحكت جمانة قائلة: «ثقي بي».

طلب صفيق آخر، لقد وثقت بالقريب فخذلني، فكيف لي أن أثق بها.

ظلت ترجوني حتى استسلمت، وفتحت عيني على مهل.. كطفل وليد يرى الضوء لأول مرة.

ولقد صُعقت ممَّا رأيت!

سيدة بعينين واسعتين ورموش كثيفة وابتسامة مدهوشة تحدق فيَّ. حركت رأسي في حيرة، فحركت رأسها مثلي.. رفعتُ رأسي وأنزلتها ففعلت بالمثل!

كانت تقلدني وتسخر مني.. رفعت قبضتي لألكمها، فاستعدت للكمي هي الأخرى، كانت ترتدي جلبابًا مماثلًا لجلبابي، ولها إصبع مُعطَّلة مثلي.. وفجأة أدركت الحقيقة.. الحقيقة التي بدت تمامًا ككذبة.

السيدة الجميلة كانت.. أنا!

سائل دافئ مفاجئ انهمر من عينَي على وجنتي وسط صرخات جُمانة.

لم أكن أعلم أنني ما زالت لديَّ دموع!

ولم أستطع إيقافها.

كانت أمامي في المرآة صورة جميلة منِّي.. تُظهر عمق

عينَي وتبرز عظام وجنتَي. حتى السِّن الناقصة، ركَّبت لها طرفًا بلاستيكيًا أبيض صغيرًا. جعلت من ابتسامتي الخرقاء ابتسامة رقيقة.

أهذه أنا؟ أكان يمكن أن أكون جميلة؟ وأن أحظى بهذا الشعور المختال. أين كنتِ يا جُمانة قبل خمسة عشر عامًا؟

لو كان زوجي قد رآني هكذا من قبل لربما لم يرحل.

ولم يُقتل!

صوت طرقات على الباب.

اقتربت جُمانة من حقيبتها تغلقها.

دفعتُها بعيدًا فوقعت أرضًا، وتشبثت أنا بالحقيبة، بصورتي الجميلة في مرآتها.

علا صوت الطرقات وتداخل مع استغاثة جُمانة، ثم انكسر الباب!

أقدام كثيرة اقتحمت المكان، حاولت جُمانة تخليص حقيبتها من بين يدَي، ولكنني رفضت أن أتركها ولو مزقوني.

أشار رجل إليّ وصرخ: «هذه هي المجنونة التي كانت تسرق منّي الموز».

هتف البواب وقد اشمأزت ملامحه: «ألم أقُل لكم إن شقتها هي مصدر الرائحة بالبناية؟!»

اقترب منِّي رجل بثياب الشرطة، وفتح آخر باب الحمَّام، ثم صرخ قائلًا:

- توجد جثة هنا..

آه الجثة!

سمعتُ البواب يهتف في استغراب:

- سبحان الله، أول مرة أشوف قرد عينه خضراء!

***

-12-

المحضر

زفر وكيل النيابة وهو يقول لأمين السر بجانبه:

- اكتب عندك يا بني.. أمرت النيابة بإيداع السيدة نجيَّة خلف عطا الله بالقسم الشرعي بمستشفى الخانكة للأمراض النفسية لحين الانتهاء من التحقيقات. وقد أظهرت المتهمة تشبثًا مَرضيًا بحقيبة مستحضرات تجميل ورفضت التخلي عنها ممَّا أدى إلى إتلافها واتهام الآنسة جُمانة فتحي للمتهمة بسرقة الحقيبة في محضر رسمي مرفق. وبتفتيش شقة المتهمة عُثر على جثة قرد في المرحلة الثانية من التحلل، وقد تبين من الكشف الأولي على الجثة أنه قد مات بسبب ضربة على الرأس بواسطة أداة ثقيلة تسببت في تهشم جمجمته، وقد اعترفت المتهمة بأنها الفاعلة. وقد تبين من الكشف الظاهري للجثة أنها ألبست القرد ملابس رجل بالغ ووضعت له عدسات لاصقة خضراء اللون، وكانت تحلق له شعر جسده باستمرار. وبالتحقيق مع حارس العقار، أفاد بأنها اقتنت القرد منذ فترة وكانت تعاملها كإنسان، وتناديه باسم غالب. وأنها اشترت له خصيصًا بدلة كحلية وقميصًا أبيض وربطة عنق حمراء، كانت تجعله يلبسها طوال الوقت، وكثيرًا

ما كانت تسرق له الموز من الباعة الجائلين. وقد أكد الحارس أنه لم يكن يتردد على المتهمة سوى شخص واحد يُدعى عم حامد، كان يزورها على فترات متباعدة ويأتي لها حاملًا بعض الأغراض في كل مرة، وقد شوهد أكثر من مرة وهو يغادر العقار حاملًا مقتنيات من شقة المتهمة زاعمًا أنه يفعل ذلك بأمرها. كما كان يصطحب ابنته معه من آنٍ لآخر كي تنظف البيت تنفيذًا لأوامر زوج المتهمة الغائب.

وبالتحقيق مع الجيران تبين أن المتهمة دأبت على تربية القطط ذات الشعر الأبيض الغزير، الواحدة تلو الأخرى، وإطلاق أسماء إناث عليها، وكانت القطط تختفي في ظروف غامضة.

وبتفتيش هاتف المتهمة عُثر على رقم دأبت على الاتصال به باسم «تاجر الأعضاء»، وبالتحقيق مع صاحب الرقم تبين أنه عامل في محل دواجن قريب من منزل المتهمة، وأنها كانت تتخلص من أعضاء القطط الميتة من خلاله، حيث كان يبيعها لأصحاب الكلاب كفضلات وبقايا دواجن. وأنها حاولت إقناعه بتصريف جثة القرد ولكنه رفض.

وقد تبين أن زوج المتهمة المدعو غالب رجب فهيم هو ابن عمتها ويعيش خارج البلاد منذ خمسة عشر عامًا وهو حاليًا متزوج من أخرى، وقد تزوج المتهمة بالفعل ثم هجرها في

ليلة الزفاف.

وقد أفادت التحريات بأنه عقد قرانه عليها مضطرًا، تنفيذًا لوصية جده حتى يستطيع التصرف في الميرات.

لم يُستدل للمتهمة على أقارب آخرين سوى عمة ضريرة وابنة ترعاها تقيمان بمحافظة المنيا، حيث توفي والدها وهي طالبة في المرحلة الثانوية ثم لحقت به والدتها، بينما قُتل أخوها أمير خلف عطا الله في ليبيا منذ حوالي سنة على يد عناصر داعش. وبسؤال ابنة العمة عن أقارب آخرين للمتهمة، أفادت بأن لها خالة واحدة تزوجت من أجنبي على غير رغبة أهلها فتم التبرؤ منها بعد أن سافرت مع زوجها إلى الخارج ولم يمكن الاستدلال عليها.

أُغلق المحضر في ساعته وتاريخه.

***

-13-

لا تسألوا نجيَّة

أنهت ندى قراءة الأوراق الباقية وسط أجواء مشحونة بالتوتر بسبب شيرين التي نفد صبرها لانتظارها يومين كاملين حتى أتت ندى ببقية الأوراق من الجريدة.. أخذت تنقر على ظهر الفراش تارة، وتطلق الزفرات والتنهيدات تارة أخرى، مع عبارات من نوعية: «اقرئي بسرعة.. هل انتهيتِ؟»

فرغت ندى من القراءة أخيرًا ورفعت رأسها صوب أختها التي تهلل وجهها ولمعت عيناها وهي تسأل:

- ها، جثة مَن التي وجدوها في شقتها؟

- جثة قرد، ألبسته بدلة، ثم قتلته.

- قردا! ألبسته! قتلته؟!

- نعم. لقد أحالوها إلى مستشفى الأمراض النفسية لحين الانتهاء من التحقيقات. مكتوب في الأوراق أنها مريضة بالفصام، ولكنني أشك أن هذا هو التشخيص الصحيح، أظنها مصابة باضطراب شخصية فصامي النمط فحسب.

- وهل هناك فرق؟

- فرق كبير.. هي لديها اضطراب في الشخصية، وهو مرض نفسي، مزمن وحاد، ولكنه أخف درجة من الفصام. ونسبة قليلة من المصابين به قد تتطور حالتهم إلى الإصابة بالفصام.

- هل له علاج؟

- حسبما درست، فالعلاج الدوائي هو العلاج الرئيسي، ويدعمه العلاج النفسي؛ لذلك لديَّ فضول شديد لمعرفة نجيَّة عن قرب ودراسة حالتها.

- ولكن هل أنتِ متأكدة من تشخصيك؟

- ممَّا قرأته من كلامها فالأعراض متقاربة جدًّا، سواء التشوه الواضح في طريقة تفكيرها وتقييمها للأمور، أو غرابة تصرفاتها ومظهرها، وعزوفها عن تكوين علاقات مع الآخرين، والضلالات والهلاوس التي تعاني منها، واعتقادها بأن الجميع يحملون أفكارًا سلبية تجاهها، وشعورها بوجود شخص غائب معها. كل هذه أعراض تدل على اضطراب شخصية فصامي النمط.

- ما هو دوركِ وعلاقتكِ بالأمر؟

- الأستاذ مجدي كان يريد تغطية صحفية للأمر من الناحية النفسية للمتهمة، فطلبتُ منه تكليفي. قضيتها ستساعدني

كثيرًا في الرسالة. ولكنني أحتاج لزيارتها أولًا قبل أن أكتب عنها.

هتفت شيرين في استنكار:

- ستذهبين إلى مستشفى المجانين يا ندى؟

تلفتت ندى حولها في فزع وهي تقول هامسة:

- اخفضي صوتكِ وإلا ستوقظين ماما. هذا عملي يا شيرين، ونزلاء المستشفى من أمثال نجيَّة هم مرضاي في المستقبل، أنتِ تعلمين أني أتدرب كصحفية مؤقتًا لحين الانتهاء من الرسالة ثم سأتفرغ للعمل كأخصائية نفسية.

- نجيَّة هذه قد تكون خطيرة.

- لا تقلقي. ولكن هذه ليست العقبة، لقد حاولت زيارتها اليوم فرفضوا. لا يُسمح بزيارة القسم الشرعي من المستشفى إلا بإذن من النيابة.

- أيًّا كان.. عديني ألا تذهبي بدوني.

- ولكنكِ لا تحبين النكد!

- ولا أحب كذلك أن تذهبي هناك وحدك. عديني هيًّا..

- أعدكِ، والآن انهضي وإلا ستُقلع الطائرة من دونك.

أومأت شيرين برأسها وبدأت بالاستعداد بينما تظاهرت ندى بالنوم، ودموعها تسيل على خديها وهي تفكر في صاحبة الأوراق.

ومأساتها..

***

-14-

إذن النيابة

زفر المقدم عاصم وهو ينهي مكالمته الهاتفية العاصفة مع خطيبته ميهان. أخذت أصابع يده اليسرى تحرك خاتم خطبته البلاتيني الذي كبّل بنصر يُمناه وهمَّ بخلعه حينما سمع طرقات على الباب ثم دخل أمين الشرطة يبلغه:

- صحفية تريد مقابلتك.

- لا أقابل صحفيين وأنت تعلم.

قالها عاصم بنبرةٍ عاليةٍ فظّة علّها تُسمع الصحفية المنتظرة بالخارج فتذهب من حيث أتت. اقترب منه الأمين هامسًا بنبرةٍ ذات مغزى:

- معها توصية.

نظر إليه عاصم في غضب.. ملاحظة الأمين تعني أن معها «واسطة» مهمة وأنه سيضطر لمقابلتها شاء أم أبى. أومأ للأمين برأسه كي يسمح لها بالدخول وقد قرر أن يتم الأمر على الأقل وفق شروطه. نظر صوب الباب بغطرسة دون أن يقف، وانتظر أن تدخل عليه إحدى الصحفيات المخضرمات مشمرة عن أكمامها وكاشفة عن أنيابها كما اعتادهن. ولكنه

فوجئ بفتاة قصيرة القامة ذات وجه مثلث يزينه طابع حسن مميز، ترتدي سروالًا من الجينز الأزرق وقميصًا أبيض بسيطًا، وقد تدلت حقيبة ظهر سوداء من على كتفها فبدت أقرب لطالبة جامعية منها لامرأة عاملة. عقد حاجبيه وأشار لها بأن تجلس أمامه وهو يتأمل وجهها الأبيض والنمش البني الدقيق الذي تناثر برقة على أنفها ووجنتيها، ثم رفع عينيه إلى خصلة شعرها البرتقالية النافرة من تحت غطاء شعرها والتي جعلته يتساءل في نفسه إن كان للفتاة طبعًا ناريًّا مثل شعرها!

جلست ندى على طرف المقعد وقد جف ريقها. تأملت البنية الرياضية لضابط الشرطة الجالس أمامها بمنكبيه العريضين وقميصه الأسود المشدود وشاربه الأسود الكثيف وشعره الذي تراجع قليلًا عن جانبي جبهته. التقت نظرتها المترددة بنظرة عينيه المتغطرسة التي توسطت ملامحه المتجهمة.

- كيف أستطيع مساعدتك؟

سألها المقدم عاصم بنظرةٍ باردةٍ ومزاج سيئ لم يتبدد منذ مكالمته الهاتفية الأخيرة. ابتعلت ندى ريقها قائلة:

- أنا ندى حمزة السيوفي صحفية تحت التمرين.

رمقها الضابط بنظرة مستخفة فأضافت في سرعة قبل أن

تفقد شجاعتها:

- ألست الضابط المسؤول عن قضية السيدة نجيَّة؟

- نجيَّة؟

عقد بين حاجبيه يفكر..

- التي قتلت القرد.

- آه، القرد.. هل أنتِ قريبتها؟

- لا أنا صحفية، أريد كتابة موضوع عنها.

أشاح بيده قائلًا:

- لا وقت لديَّ لهذه الترهات، يمكنكِ صياغة ما تحتاجين من معلومات من على صفحتنا على «الفيسبوك».

- لا أحتاج لمعلومات.

رفع عاصم أحد حاجبيه وهو يردف في نفاد صبر:

- ماذا تريدين إذن؟

ابتلعت ندى ريقها ثانية وبدا عليها التردد قبل أن تحسم أمرها وتقول باندفاع:

- أريد إذنًا من النيابة لزيارة المتهمة في مستشفى الخانكة،

وخالي مجدي، آآآ أعني رئيس تحرير الصحيفة التي أتدرب فيها، أستاذ مجدي السكري، أخبرني بأنك ستساعدني.

عاد عاصم بظهره إلى الوراء في كرسيه وهو يقول بابتسامة ذات مغزى:

- أنتِ ابنة أخت رئيس تحرير جريدة «الحبر الحر»؟ مجدي بك يأمر طبعًا.

لم تفهم ندى إن كان يسخر منها ويحاول صرفها أم سيتعاون معها، ولم تدرِ ماذا تفعل فظلت في مكانها تطرف بأهدابها الذهبية في حيرة، وقد بدأت كفاها تتعرقان وهي تغلقهما وتفتحهما في توتر.

قلب عاصم الأمر في رأسه. لم يكن يريد التعاون مع مجدي السكري، فالصحفيون المستقلون أمثاله لا يأتي من ورائهم إلا وجع الرأس، ولكنه شعر بالشفقة على الفتاة الرقيقة أمامه ولا يريد كسر خاطرها. كسر خاطرها؟! ومَن هي حتى يعبأ بخاطرها؟! مجرد صحفية مزعجة مثلها مثل الآخرين، إن تعاون معها وسهَّل لها الأمر ستستغله وتزعجه في كل قضية لاحقة.

- سيكون إذن النيابة جاهزًا في خلال أيام.

تفاجأ عاصم بما تفوَّه به فعبس، أما ندى فشكرته غير

مصدقة واتجهت نحو الباب من فورها دون كلمة إضافية وكأنما تخشى أن يسحب وعده، ولكنه استوقفها قائلًا بتجهم:

- اتركي رقمكِ كي نبلغكِ حينما يكون الإذن جاهزًا.

***

-15-

أوراق نجيَّة

في المساء، جلست ندى على فراشها في غرفتها وحيدة بعد سفر شيرين. لم تتمالك نفسها من النظر في أوراق نجيَّة مرة ثانية.

كانت ممتنة لخالها الذي جلب لها تلك الأوراق من ملف القضية بطرقه الخاصة بعد أن ألحت عليه كي تدرسها عن كثب وتحقق من خلالها التواصل الحسي بينها وبين نجيَّة قبل مقابلتها.

وقد فعلت الأوراق.. وأكثر.

تحسست ندى بتأثر المواضع المتجعدة من الأوراق وتساءلت: كم من الدموع ذرفت نجيَّة فوق هذه الأوراق في لياليها الحزينة وهي تكتبها وحيدة! هل قرأتها بعد كتابتها؟ وهل سكبت المزيد من الدموع حينئذ؟ هل كانت مقتنعة حقًّا بأن القرد هو زوجها؟ أم كانت واعية للحقيقة واختارت بمحض إرادتها أن تطمسها وتعيش الخيال؟ وكيف يمكن لرجل أيًا كان مبلغ شره أن يؤذي امرأة على ذمته بهذا الشكل، وهي في الأصل ابنة خاله؟ لقد مزقها نفسيًّا برفضه لها وهروبه منها، بعد أن تزوجها من أجل ميراثها!

تساءلت ندى لماذا لم يرث ابن عمتها مثلها؟ أم كان ميراثها من جهة الأم؟ لا بل من جهة الأب. وماذا عن أخيها؟ ألم يرث هو الآخر؟ أم أن الجد اختصها هي بماله وأرضه ليتزوجها غالب؟! ولماذا فعل ذلك؟ ألم يكن عالمًا بعدم رغبة غالب فيها؟ أم أن غالب تظاهر بغير ذلك كي يفوز بالمال؟ تفاصيل غريبة ومثيرة للفضول، ودَّت ندى لو استطاعت الكشف عنها كلها.

تأملت ندى خط نجيَّة الطفولي وحروفه الدائرية الكبيرة التي استغربت لها شيرين. كما لاحظت التباين الواضح في ضغطها بالقلم في مواضع بعينها، الضغط كان واضحًا في الفقرات البائسة، وأخف كثيرًا في الفقرات التي تكلمت فيها عن جدها.

عرفت ندى من خلال دراستها أن خط المرء عادة ما يحمل دلالة قوية على شخصيته. نظرت إلى ساعتها فوجدتها لم تتجاوز التاسعة مساء. اتصلت بأستاذها الذي رحب بها فحكت له عن خط نجيَّة وسألته عن رأيه، طلب منها إرسال عينة كصورة على هاتفه. وبعد عدة دقائق هاتفها قائلًا:

- هذا الخط يحمل دلالة قوية على أن صاحبته شخصية مضطربة نفسيًّا.

- ألا يدل الخط الكبير عادة على أن صاحبه شخص منفتح وجريء ويميل للتظاهر؟

- هذا صحيح.. ولكن خطها أكبر من الطبيعي بكثير، ويشير إلى شخصية متطرفة تحمل أفكارًا مبالغًا فيها.

- هل يعني هذا أنها قادرة على اختلاق أحداث وتصديقها؟

- كلنا قادرون على ذلك يا ندى. والشخصيات السوية تميز ما اختلقته وتفصله عن الحقيقة. أما صاحبة الخط فربما تكون قد اختلقت لنفسها بصورة مرضية عالمًا تعيش فيه وتصدقه. أرى أن خطها يشي أيضًا بعدم قدرتها على التحكم في نفسها وربما ميلها للعدوانية.

- حسنًا..

قالتها ندى في خفوت وعقلها يحاول تحليل ما قاله أستاذها وربطه بنجيَّة، ولكنها فوجئت بصوته يعلو قائلًا:

- ندى، احذري.. صحيح أن تحليل الخط وحده غير كافٍ للحكم عليها، ولكن هذه الشخصية قد تكون خطيرة.

أنهت ندى المكالمة وقد خلَّفت لديها عبارة أستاذها الأخيرة قلقًا مبهمًا. تذكرت وصية شيرين لها بعدم الذهاب إلى نجيَّة وحدها. وتساءلت: «هل نجيَّة خطيرة فعلًا كما يظنون؟ أهي

الجاني أم المجني عليه؟ هل كانت صادقة في كل ما كتبت في الأوراق وما ذرفته عليها من دموع؟ إن كانت صادقة فلا بد أن حياتها كانت مأساة مكتملة الأركان، وأن ما عانت منه في طفولتها ومراهقتها المبكرة هو السبب وراء إصابتها بالمرض النفسي الحاد الذي تعاني منه».

كانت ندى ترجو أن تكون نجيَّة قد اختلقت هذه الشرور عوضًا عن أن تكون قد مرَّت بها، سيصبح العالم أكثر سوادًا وبؤسًا في عينَي ندى عمَّا هو عليه أصلًا إن ثبت أن ما قالته نجيَّة وما مرَّت به كان حقيقة.

تفكرت ندى في التنمر والنبذ المتواصل الذي تعرضت له نجيَّة في مدرستها، فمن وصفها لشكلها في الأوراق بدا أنها ترى نفسها قبيحة للغاية. رسمت ندى في مخيلتها صورة لها بناء على وصفها، تخيلتها امرأة ضخمة بدينة بجسدٍ خالٍ من المنحنيات. لها شعر أشعث خفيف مهوش، وعينان ضيقتان قريبتان من بعضهما بعضًا، وفم كبير يكشف عن أسنانها التي تنقصها سنٌّ أمامية. وصف دقيق لوجه لا يمكن أن تخطئه إن رأيته.

ولكن متى يتم اللقاء المرتقب؟ هل سيتصل القسم بها كما وعدها ذلك المقدم؟ رجحت أنه سيتجاهلها، فقد بدا عليه حينما قابلته أنه لا يطيقها ولا يطيق جنس الصحفيين

بأسره.

نظرت للأوراق بين يديها وبدأت تخطط للطرق المختلفة التي قد تضطر لسلكها كي تتمكن من زيارة نجيَّة. أعياها التفكير حتى استسلمت للنوم وأوراق نجيَّة بين يديها.

***

استيقظت ندى في صباح اليوم التالي على رنين هاتفها. رقم غير مسجل، دق قلبها وهي تتساءل إن كانت هذه مكالمة الأمين التي تنتظرها، ردت فوجدت صوتًا رخيمًا واضح النبرات يسأل:

- آنسة ندى؟

- نعم.

- أنا المقدم عاصم، إذن النيابة جاهز، يمكنكِ استلامه في أي وقت.

لم تصدق ندى أذنيها وأنهت المكالمة وهي تكاد تقفز من فرط الحماسة. شابها استغراب خفيف لاتصال المقدم بنفسه دون أن يكلف الأمين بذلك، ولكنها نحت استغرابها جانبًا وانطلقت صوب قسم شرطة العباسية.

أدخلها الأمين على الفور فيما بدا أنه وفق تعليمات المقدم

عاصم. دخلت فوجدته يتحدث في الهاتف وقد احمرت عيناه وبرزت عروق جبهته، دب القلق بأقدامه في قلبها، وبدأت تتراجع نحو الباب، ولكن عاصم أشار لها بالجلوس فأطاعته منكمشة. أشار بإصبعيه السبابة والإبهام راسمًا ما يُشبه حرف الـ (C) للأمين كناية عن كوب، ففهم إشارته وسأل ندى عمّا تريد أن تشرب. بينما أجاب عاصم محدثه على الهاتف بهمهمات خافتة لا تعكس الغضب المحفور على وجهه. لم تسمع من المكالمة شيئًا ولكنها خمنت من لغة جسده أن المتحدث على الجانب الآخر شخص غير مرغوب فيه، وفي الوقت نفسه.. مفروض عليه!

أنهى عاصم المكالمة والتفت إلى ندى محاولًا اغتصاب ابتسامة ترحيب، قبل أن يمد لها يده بورقة مختومة قائلًا:

- إذن النيابة.

مدت ندى يدها كي تسحب الورقة ففوجئت به يسحبها منها إلى الوراء وهو يستطرد:

- انتبهي لنفسك، قد تكون المتهمة خطيرة.

ارتبكت ندى وهتفت:

- ما بالكم جميعًا تنصحونني، أنا لست طفلة!

رفع المقدم حاجبًا وهو يتساءل:

- جميعًا؟

- أنت وأختي وخالي وأستاذي بالجامعة.. أنا أستطيع الاعتناء بنفسي جيدًا.

كتم المقدم ضحكة كادت تفلت منه وهو يتأمل الأسلوب الطفولي الذي نطقت به عبارتها الأخيرة، تصنَّع الصرامة وهو يقول بلهجةٍ آمرة:

- لا تقابليها وحدك. أو على الأقل استبقي إحدى الممرضات بجوارك.

رفعت ذقنها وهي تقول في إباء:

- أختي ستأتي معي.

قالتها ومدت يدها ثانية لتأخذ الإذن ولكنه تجاهلها واعتدل في كرسيه بتعالٍ مصطنع سائلًا إيَّاها:

- ما سبب اهتمامكِ بها؟

ظهر الاندهاش على ندى من اهتمامه وسؤاله، ولاحظ هو اندهاشها فاستدرك قائلًا بجدية:

- إن كنتِ تحتاجين لمعلومات حول القضية، يمكنني أن

أمدكِ بها، يهمنا مساعدة الصحفيين على تأدية واجبهم في نقل ما نفعله للشعب.

شعر عاصم على الفور بسخافة عبارته الأخيرة وكأنه نقشها نقشًا من كتاب التربية الوطنية للصف الثاني الثانوي. قطبت ندى ما بين حاجبيها متحيرة. رنَّ هاتفها فنظرت بطرف عينها لتجده طارق، تجاهلت اتصاله وضغطت على زر كتم الصوت. بالتأكيد يتساءل عن سبب تأخيرها ويريد الاطمئنان عليها. رفعت رأسها لتجد عاصم بانتظار ردها. لم تدرِ ماذا تقول فابتسمت نصف ابتسامة قائلة:

- شكرًا لك، أريد فقط معرفة التهمة الموجهة إليها وعقوبتها في القانون، هل هي قتل القرد؟

- لا توجد في القانون مادة تُعاقب مَن يؤذي حيوانًا للأسف، ما لم يكن ذلك الحيوان ملكًا لشخص قام بتقديم البلاغ بنفسه. ونحن لم نستدل على صاحب للقرد، أغلب الظن أنها اشترته من أحد الأسواق الشعبية التي تنتشر في المناطق العشوائية.

- ما تهمتها إذن؟

- اتَّهمتها خبيرة تجميل تُدعى جُمانة فتحي بأنها تعدَّت عليها بالضرب وسرقت منها حقيبتها وأتلفت محتوياتها، وقد

قُدِّر ثمنها بما كانت تحويه من مواد تجميل بعشرين ألف جنيه.

- هذا مبلغ كبير.

- لقد أبدت خبيرة التجميل استعدادها للتصالح إن تم تعويضها بمبلغ مناسب.

- ماذا عن أهل نجيَّة؟

- لها زوج يعيش في غرب أوروبا، لم نستطع التواصل معه حتى الآن. والشخص المكلف بالصرف عليها لا يملك هذا المبلغ ولكنه وعد بالاتصال بزوجها. وفيما عداهما لها عمة ضريرة تعيش مع ابنتها في محافظة المنيا، وهي والدة غالب زوجها بالمناسبة، وقد وعدت بحل المشكلة في أقرب فرصة ولكن لم يحدث شيء حتى الآن.

ذبلت ابتسامة ندى مع كلام عاصم وعقبت في أسى:

- مسكينة.

- ومساكين الناس الذين آذتهم كذلك. كان يجب حبسها عنهم وإيداعها المستشفى حتى نتبين حالتها العقلية وتتلقى العلاج اللازم لحين الانتهاء من القضية. هل ما زلتِ مصرة على زيارتها؟

- الأوراق التي كتبتها مقبضة، لا أصدق أن يتعرض إنسان لكل هذا الكم من الألم والتنمر في حياته. أشك أنها وبسبب مرضها ربما اختلقت تلك الأحداث وعاشت فيها، أحتاج لمقابلتها كي أسمعها وأجزم بنفسي.

كادت ندى تخبره بأن المسألة لم تعُد بالنسبة لها مجرد تقرير صحفي أو رسالة ماجستير وإنما باتت تشعر بأن الأمر شخصي. فهي لديها حساسية خاصة تجاه الظلم، لا يمكنها تحمله ولا التعايش معه، خاصة حينما يختص الأمر بطفولة معذبة. تريد كشف الحجاب عن الحقيقة أينما كانت. لو أفضى تحقيقها إلى أن نجيّة اختلقت ما دوَّنته من مآسٍ سترتاح وتنام هادئة البال. ولكنها أحجمت عن البوح بمكنونات نفسها لعاصم في اللحظة الأخيرة.

لاحظ هو شرودها فاتسعت ابتسامته للمرة الأولى منذ رأته ندى وتغيرت ملامحه تمامًا! ظهرت له غمازتان في وجنتيه، وارتفعت عظمتاهما مع زاويتي عينيه الخارجيتين إلى أعلى فصار إنسانًا آخرا!

وسيم ولطيف و..

قطع أفكارها بصوته الرخيم الذي دخلت عليه نبرة لطيفة:

- علمتني مهنتي أن الحقيقة قد تكون مُرَّة، أمرٌ ممَّا

تتوقعين، فهل أنتِ مستعدة؟

ابتسمت ندى بدورها وأومأت برأسها بالإيجاب فقال:

- أتمنى لكِ التوفيق، وسأنتظر الحقيقة التي ستكتشفينها.

اتسعت ابتسامة ندى، بينما فغر الأمين فمه غير مصدق أن الشخص اللطيف الذي يتكلم هو بعينه المقدم عاصم الغاضب دائمًا وعدو الصحفيين أبدًا.

خرجت ندى تحمل إذن النيابة بيدها، تتبعها نظرات عاصم، يراقبه الأمين بدوره مدهوشًا.

***

-16-

وجه نجيَّة

توقفت ندى أمام اللافتة البنية العريضة التي اعتلت المدخل وقرأت: «مستشفى الخانكة للأمراض النفسية». تراءت لها مساحات شاسعة وأشجار كبيرة وارفة أزالت قليلًا من الرهبة التي اعترتها بدخولها مع شيرين من البوابة. تناثرت مظلات خوص متواضعة على جانبي الطريق الأسفلتي نحو مباني المستشفى. وتحتها، جلس أشكال وألوان من البشر في حالة ملل ظاهر تشي بالانتظار. لم تدرِ ندى أمرضى هم، أم هم ذوو المرضى بانتظار الدخول للزيارة.

بدت على شيرين الإثارة وهي تسأل ندى:

- هل نسأل عن عنبر 8 غرب؟

افترَّ فم ندى عن ابتسامة متوترة وهي تجيبها:

- أنتِ متأثرة بفيلم «الفيل الأزرق». عنبر 8 غرب كان مخصصًا بالفعل للمرضى المتهمين في جرائم جنائية.. ولكن القسم انتقل إلى مبنى مستقل بعد أن أصبح وحدة خاصة تابعة للطب الشرعي.

أومأت شيرين برأسها وتبعت ندى التي سارت حتى تجاوزت المباني الرئيسية باحثة بنظرها عن العلامات التي ذكرها لها خالها: أسوار عالية وأبراج مراقبة ولافتة مكتوب عليها «قسم المودعين». طال بهما المشي في الشوارع غير المعبدة وسط شجيرات التين الشوكي الكثيفة حتى توقفتا أمام المبنى المنشود. كان محاطًا بسور أسمنتي مرتفع يعلوه سور آخر من الأسلاك الشائكة، مع أبراج مراقبة أسطوانية ضخمة، وبوابة حديدية مغلقة.

التضاد بين الصمت المطبق إلا من هزيز الرياح، وبين عبارة «قسم أول يرحب بالسادة الضيوف» المكتوبة على السور بألوان مبهجة مثل أسوار المدارس، زاد من اضطراب ندى وارتباك مشاعرها.

انفتح الباب الحديدي ووجدت الفتاتان نفسيهما أمام أحد أفراد الشرطة يسألهما عن تحقيق الشخصية الخاص بهما وسبب الزيارة. أخرجت ندى الأوراق التي بحوزتها فانتهت إجراءات الدخول سريعًا ممَّا دفع ندى لأن تتساءل إن كان لخالها دور في تلك التسهيلات، أم هو المقدم عاصم؟

تعاظم شعور ندى بالرهبة وهي تتبع إحدى الممرضات مع شيرين عبر رواق طويل على جانبيه أبواب مغلقة. شعرت وكأنها في فيلم سينمائي يقدم مشهد إثارة يحبس الأنفاس

بطله الصمت على خلفية أصوات أقدام الأبطال المتلاحقة لتتصاعد ضربات قلب المتفرج توجسًا ممَّا هو آت. تبدَّد الصمت قليلًا مع اقترابهم من نهاية الرواق إذ تصاعدت أصوات متداخلة لم تتوقعها ندى.

«الحلوة داير شبَّاكها.. شجرة فاكهة.. ولا في البساتين» تنبعث بصوت محرم فؤاد الشجي من الراديو الخاص بأفراد التمريض الذين جلسوا يتسامرون معًا في نهاية الرواق، تتسلل ممَّا بين أيديهم من طعام روائح حميمية تتناقض بشكل صارخ مع أشواك شجيرات التين القاحلة بالخارج وأجواء العزلة والفزع التي تسكن المكان.

جاهدت شيرين لاصطناع الجدية وغلق فمها الذي افتر عن ابتسامة إثارة واسعة كلما اقتربا من الغرفة المنشودة كي لا يسيء أحدهم فهمها، بينما غطى الوجوم وجه ندى. سألتها:

- خائفة؟

- رهبة.. وكآبة.

توقفت الممرضة أمام باب إحدى الغرف. استرقت النظر من النافذة الزجاجية المستطيلة أعلى الباب. بدا أنها رأت ما طمأنها، فأخرجت من جيبها حلقة بها عدة مفاتيح على كل منها ملصق مدون عليه رقم بخط يدوي صغير. أخذت تقلب

بين المفاتيح حتى وجدت ضالتها فدسَّته في الباب وأدارته عدة مرات ثم دفعت الباب بيدها برفق فانفتح..

أشارت الممرضة لندى بالاقتراب فتقدمت نحو الغرفة بخطوات مترددة.

اشتمت عند اقترابها رائحة خافتة غير محببة تتسلل من الحجرة!

كانت ندى تتوقع غرفة حقيرة، تقشَّر الطلاء عن جدرانها الباهتة فلا تستطيع القطع بلونه، تكالبت عليه بوضوح عصور من الطلاء الرمادي والأخضر والأصفر الباهت. يكسو أرضيتها بلاط رمادي متسخ، ويقبع في ركنها سرير حديدي صدئ تمتلئ صفحة حاشيته الهزيلة بالبقع التي تمازجت ألوانها وتماهت حدودها مع المواضع المهترئة بها فطلَّ منها إسفنج بني قذر.

تفاصيل دقيقة رسمها خيال ندى قبل الزيارة، لترى بعينيها ما يُخالف ذلك تمامًا!

غرفة حديثة نظيفة، جدرانها مبطنة بمربعات من الجلد الأبيض الناصع. لها نافذة واحدة مرتفعة تغطيها قضبان حديدية سميكة، يدخل منها ضوء النهار على استحياء. يتوسط الغرفة فراش حديدي جديد عليه حاشية مرتفعة

تغطيها ملاءة نظيفة، وفوقها.. قبعت امرأة ضخمة ذات ظهر محدودب، وجهها للجدار وظهرها للباب.

بدا شعرها المهوش - وقد أطَّره الضوء المنساب من النافذة - كلبدة أسد عجوز. بينما ازدادت حدة الرائحة المنفرة كلما اقتربت منها ندى.

ربتت الممرضة كتف السيدة التي لم تحرك ساكنًا، فأومأت لندى تطمئنها.

تقدمت ندى بعد أن ضغطت على يد شيرين كي تنتظرها خارج الغرفة كما اتفقتا سابقًا. كانت ندى قلقة أن يجعل وجودهما معًا نجيَّة غير مرتاحة فتُحجم عن الكلام. وافقت شيرين على مضض وانتظرت خارج الباب تطاردها مشاعر الفضول والقلق.

***

كانت ندى قد قضت ليلتها السابقة تتخيل اللقاء وتخطط لكل لحظة فيه، ولكن حينما وجدت نفسها بالقرب من نجيَّة تصاعدت دقات قلبها وتبخر كل ما أعدته..

اقتربت بخطوات حذرة فاستدارت نجيَّة إليها بغتة، جفلت ندى وقد وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام الملامح التي ظلت ترسم فيها بخيالها أيامًا.

بدت نجيَّة كما وصفت نفسها في الأوراق؛ عينان ضيقتان متقاربتان، شعر مهوش يحيط بوجهها، أنف ضخم معقوف، وفم كبير ينفرج عن سنٍّ ناقصة. بيد أن ملامحها في مجموعها لم تكن بالقبح الذي صوَّرت نفسها به في الأوراق. بل رأت ندى في ملامحها لطفًا وطيبة، وفي انفراج شفتيها براءة، وفي عينيها..

بحثت ندى في عينيها عن لمعة صدق أو أمل متوارٍ، فلم تجد سوى نظرة زجاجية خاوية.. حيرتها.

حوت ملامح نجيَّة في المجمل إنسانية لافتة، غفلت عن ذكرها في أوراقها، ولمسها قلب ندى.

لاحظت الحقيبة البنية الضخمة التي احتضنتها نجيَّة بين ذراعيها وقد تخلعت مفاصلها فرجَّحت أنها حقيبة التجميل التي رفضت تسليمها لصاحبتها. كانت آثار مساحيق التجميل لا تزال على وجه نجيَّة. أبرزها كان صف الأهداب الكثيفة الساقط عن جفنها الأيمن، الذي أخذ يهتز ويتراقص في مشهد مضحك بائس كلما طرفت بعينيها.

لاحظت الممرضة نظرات ندى الحائرة فهمست لها:

- ترفض ترك الحقيبة، كما ترفض الاستحمام أو حتى غسل وجهها كي لا تزول عنها آثار التجميل.

فسَّرت هذه العبارة الرائحة التي انبعثت من ساكنة الحجرة.

مدَّت ندى يدها في حقيبتها وأخرجت لفة حلوى بالنعناع فتحتها وقربتها لنجيَّة. ارتابت، ثم بعدما تبينت ما في يد ندى أشرق وجهها، وافترَّت شفتاها عن شبه ابتسامة وهي تحاول كبش أكبر كمية من الحلوى دون أن تترك الحقيبة البنية.

وضعت الحلوى في فمها دفعة واحدة، مصتها للحظات، ثم بصقتها في يدها وأخذت تتلفت حولها في حيرة، قبل أن تحسم أمرها وتضعها في إحدى خانات الحقيبة وترفع رأسها لندى بابتسامة امتنان باهتة.

مدَّت لها ندى كفها مصافحة:

- أنا ندى.

أومأت السيدة برأسها ومدت لندى بدورها كفًّا دبقة وهي تقول:

- نجيَّة.

- كيف حالكِ يا نجيَّة؟

أجابتها بصوتٍ خالٍ من أي نغمة:

- بخير..

- أنا أدرس علم النفس في كلية الآداب وأحتاج مساعدتك، ممكن؟

أومأت نجيَّة برأسها في حذر فسألتها ندى:

- هل أنتِ سعيدة هنا؟

- قليلًا، ولكني أفتقد غالب.

- غالب!

- هو في البيت، ينتظرني.

- أي بيت؟

- شقة العباسية.

- أليس مسافرًا؟

- غالب في البيت. كل شيء في البيت.

قالتها بنبرة غامضة وهي تمد بصرها نحو النافذة، نظرت ندى للممرضة فهمست لها مفسرة:

- إنها تتخيل أشياء وتصدقها. هي مقتنعة بأن غالب زوجها في البيت، تسأل عنه يوميًا.

أخرجت ندى من حقيبتها مناديل مبللة وقربتها من وجه نجيَّة:

- سأساعدكِ كي تكوني أجمل، أتسمحين لي؟

لم تُجبها نجيَّة ولكن بدا عليها الاستسلام. أخذت ندى تمسح وجهها برقة، فارتخت ملامحها بعد أن عبَّقت رائحة المناديل المنعشة الهواء من حولهم. رتبت ندى شعر نجيَّة بأصابعها وصففته بواسطة دبابيس شعر كانت بحوزتها. ثم أخرجت من حقيبتها مرآة ذات إطار مذهب وقربتها من وجه نجيَّة قائلة:

- انظري.

ظهرت ابتسامة مترددة على وجه نجيَّة وهي تتأمل وجهها في المرآة. ثم أخذت المرآة من ندى وأخذت تديرها في عدة اتجاهات تتأمل شكلها. سقط شعاع من الضوء على المرآة وانعكس على عينيها فضحكت.

ابتسمت ندى بدورها وآثرت أن تتركها في حالتها السعيدة تلك وانسلت خارجة تتبعها الممرضة في هدوءٍ بعد أن أوصدت عليها الباب بإحكام.

أقبلت عليها شيرين والأسئلة تتسارع على شفتيها، ولكن

نظرة واحدة منها إلى ملامح الدعة والسلام التي تجلت على وجه أختها ألجمتها وتركتها مدهوشة.

قطعت الممرضة الصمت بسؤالها:

- هل ستقابلين دكتور مراد المسئول عن الحالة؟

أومأت ندى برأسها فأشارت لها الممرضة كي تتبعها قائلة:

- هو الآن في مبنى الإدارة.

سارت ندى وراءها تتبعهما شيرين. عادوا من الرواق الطويل الذي تراصت على جانبيه أبواب الغرف المغلقة. اندلع من خلف أحدها صراخ مفاجئ أتبعته ضحكة خافتة مع طرق وخرمشة أظافر. أسرعت ندى خطاها محاولة ألا تصغي وألا تتخيل..

خرجوا من المبنى، فغمرهم شلال من ضوء الشمس مبددًا قدرًا لا بأس به من الرهبة. شعرت ندى بالدفء وتنفست بعمق وكأنما حُرمت من الهواء لساعات طوال.

في الأوضاع العادية كانت ندى لتفرح بوجودها في مكان منعزل وسط الطبيعة والهدوء، وتعتبرها فرصة للاسترخاء والتأمل واستنشاق الهواء المنعش. فكيف للهواء النقي أن يصبح ثقيلًا بهذا الشكل، وأنَّى للهدوء أن يحتمل هذا الصمت

المزعج والمقبض للروح، وكيف اكتسبت الأشجار الحيَّة كل هذا الجفاء والشح؟

ساروا قليلًا حتى اقتربوا من مبنى ضخم ذي طراز ريفي عتيق، تعلوه لافتة «المجلس القومي للصحة النفسية». دلف ثلاثتهم من بابه لتغزو القشعريرة أطراف ندى مجددًا وهي تتأمل سقفه العالي ونوافذه الكبيرة، ودرجات سلمه الداخلي المرتفعة والبرودة المنبثقة من أركانه.

وقفت الممرضة وطرقت أحد الأبواب ثم فتحته وتقدمت قائلة:

- دكتور مراد، الصحفية صاحبة إذن النيابة وصلت.

نظرت ندى لشيرين كي تنتظرها بالخارج فعضت الأخيرة على شفتها السفلى في غيظٍ بينما دلفت ندى الغرفة لتجد أمامها طبيبًا شابًّا فارع الطول، ذا رأس شبيه بالنسر، يرحب بها مبتسمًا.

***

-17-

تدهور

وجدت ندى نفسها في غرفة فسيحة، أضاءتها نافذة كبيرة احتلت الجدار المقابل للباب، وأطلت على حديقة واسعة تناثرت فيها مقاعد خشبية.

- أهلًا أستاذة ندى، كيف يمكنني مساعدتك؟

انتبهت ندى للطبيب الواقف أمامها بقامته الطويلة الفتية ورأسه شبه الأصلع ونظارته الذهبية وربطة عنقه الرمادية المعقودة بإحكام والتي ظهرت من فتحة معطف الأطباء الأبيض الناصع الذي ارتداه. كانت تظهر بشاشة مريحة على محياه بددت كثيرًا من الرهبة التي سكنت جنبات ندى منذ أن دخلت المكان، فقالت:

- أحتاج لكل ما يمكن معرفته عن الست نجيَّة.

جلس الطبيب خلف طاولة مكتبه وأشار لندى بالجلوس قائلًا:

- تحت أمرك، من أين نبدأ؟

أخرجت ندى أوراق نجيَّة من حقيبتها وقدمتها للطبيب

قائلة:

- لا أعلم إن كنت قد اطلعت على هذه الأوراق أم لا، إنها المذكرات التي خطتها نجيَّة في الأسابيع الأخيرة قبل انتقالها إلى هنا.

أخذ الطبيب الأوراق وقلب فيها ثم قال:

- نعم لديَّ نسخة منها، ما بها؟

- السيدة التي كتبت هذه الأوراق مختلفة عن تلك التي قابلتها اليوم. لا أعرف كيف أعبر عمَّا أشعر به، ولكن مَن كتبت هذا الكلام أكثر صلابة وحيلة ودهاءً من السيدة الجالسة على الفراش في وداعة. الكاتبة كانت أكثر وعيًا وقدرة على التخطيط إن جاز لي التعبير. أما التي قابلتها اليوم فكلامها مضطرب وغير مترابط وكأنها طفلة.

ظهرت نظرة تقدير في عيني الطبيب وهو يقول:

- ملاحظتكِ في محلها، لقد أصيبت نجيَّة بتدهور شديد بعد الأحداث الأخيرة. فكما تعلمين المصابون باضطراب الشخصية فصامي النمط يعانون من..

قاطعته ندى قائلة في انتصار:

- كنت متأكدة أنها ليست مريضة فصام.

انتبهت ندى أنها قاطعت الطبيب فأردفت في خجل:

- آسفة.

- بالعكس، سعيد بكلامك، ولكن كيف لصحفية مثلكِ أن تعرف الفرق؟

- تخرجت في كلية الآداب قسم علم النفس، وأقوم بإعداد رسالة الماجستير كي أصبح أخصائية نفسية.

رمقها الطبيب بنظرة تقدير ثانية:

- رائع! سيجعل ذلك حديثنا أسهل..

وهكذا.. وعلى مدى أكثر من ثلاثين دقيقة شرح الطبيب حالة نجيَّة بالتفصيل، مفسرًا التدهور الذي أصابها بسبب الأحداث الأخيرة. مرجحًا أن يكون ذلك التدهور السريع بسبب عدم وجود شخص تثق به أو وجوه مألوفة حولها أثناء اصطحابها للقسم ثم انتقالها للمستشفى. أثر ذلك عليها كثيرًا حتى بدا وكأنها اختارت طواعية إغلاق وعيها بعد نوبة الهياج المخيفة التي انتابتها. ممَّا جعلهم يودعونها في غرفة عزل انفرادي مخصصة للمرضى المهتاجين. السبب الثاني لتدهورها كان منع الأدوية عنها، وهو البروتوكول المتبع لديهم في فترة الفحص في المستشفى، كي يتسنى للجان الفحص تحديد حالتها بدقة دون تأثير العلاج.

سألته ندى:

- وهل كانت نجيَّة مواظبة على أدويتها من قبل؟

- حسب ما فهمته، كان هناك اتفاق مع الصيدلية القريبة من البيت أن تزورها ممرضة كل شهر لإعطائها الحقنة الأساسية في العلاج. في المرة الأخيرة رفضت نجيَّة أخذ الحقنة متعللة بأنها تصيبها بالوخم والخور وهي تريد الحفاظ على ذهنها متقدًا.

- هل تتوقع أن تتحسن حالتها؟

أمال الطبيب رأسه وهو يقول:

- سنحاول.. برغم توفر العلاج الدوائي لحالتها إلا أنها تحتاج تأهيلًا نفسيًا مكثفًا بالتوازي. كما تحتاج لإعادة التنشيط السلوكي حتى تستطيع التعايش مع مرضها دون انتكاس. العلاج ليس مستحيلًا، ولكن يستغرق وقتًا. قد يمكن اختصاره ببناء روابط ثقة بين المريض ومَن حوله وخاصة القائمين على علاجه، وهذا ما أحاول تحقيقه أنا والممرضة المرافقة لها. فعكس المتعارف عليه عن التمريض في مثل هذه المنشآت، عواطف طيبة وتحب نجيَّة وتريد مساعدتها.

عادت إلى مخيلة ندى صورة الممرضة وهي تربت كتف نجيَّة في رفق فأومأت برأسها ثم سألته:

- وماذا عن أهلها؟

رفع الطبيب عينيه إليها وهمَّ بإجابتها حينما فُتح باب الغرفة فجأة لتدخل منه عاصفة بشرية صهباء ترتدي قميصًا خفيفًا قصير الأكمام ذا طرفين مربوطين على شكل عقدة من الأمام، وسروالًا أسود ضيقًا وتدب بحذائها ذي الكعب الرفيع هاتفة في غضب:

- لن أقف بالخارج أكثر.

ثم نظرت إلى الطبيب الذي بدت على وجهه أمارات الدهشة وقالت في تصميم وهي تشير إلى أريكة جلدية جانبية:

- سأجلس هنا.. شئتما أم أبيتما.

أتبعت قولها بالفعل، فجلست على الأريكة واضعة قدمًا فوق الأخرى ثم أزاحت خصلات شعرها البرتقالية عن وجهها بحركة حادة ورفعت ذقنها إلى أعلى وهي تنظر إليهما في تحدٍّ ممزوج بغيظ مكتوم.

أخذ الطبيب ينقل نظراته مدهوشًا بين الفتاتين الجالستين

أمامه محاولًا فهم ما يدور. شعر أنه أمام نسختين متشابهتين، إحداهما رقيقة خجلة، والأخرى..

الأخرى يشع من عينيها الذهبيتين بريق خطير.. وآسرا!

امتقع وجه ندى وغزا الاحمرار وجنتيها فتماهت فيهما نقاط النمش وهي تقول متلعثمة:

- آسفة، هذه شيرين، أختي، كانت تنتظرني بالخارج، ولكن يبدو أننا أطلنا الحديث و..

قاطعتها شيرين قائلة في حنق:

- أطلتما الحديث.. فقط؟ لقد تركتني واقفة ما يربو على الساعة هناك ثم هنا، وبهذا الكعب..

هتفت بها وهي ترفع حذاءها المدبب في وجهيهما ثم أخفضته وهي تردف:

- ودونما أن أتناول إفطاري.

ابتسم الطبيب ورفع كفه إلى أعلى مستقطعًا وقتًا للهدنة:

- سوف أطلب لكِ الإفطار حالًا.

ودون أن ينتظر ردًا، أمسك بسماعة الهاتف الداخلي وطلب رقمًا وانتظر لحظة ثم أملى طلباته من المخبوزات والشطائر

قبل أن يضع كفه على السماعة موجهًا سؤاله للفتاتين:

- ماذا تشربان؟

ترددت ندى في خجل بينما قالت شيرين في سرعة:

- ندى شاي بالحليب ملعقة واحدة من السكر، وأنا قهوة بن غامق سادة.. سادة من فضلك.

أملى الطبيب المشروبات وأنهى المكالمة وهو يفكر في أن مزاج الفتاتين في المشروبات يعكس شخصية كل منهما.

طالت جلسة الفتاتين مع الطبيب، فبعد أن تناولتا الإفطار استجابة لإصراره سألته ندى عن المزيد من التفاصيل لحالة نجيَّة وأخذت تدون ملاحظاتها في دفترها الصغير. بينما تابعت شيرين حوارهما وقد بدت التسلية على وجهها بعدما انفرجت أساريرها بفعل الطعام والقهوة. رن هاتف ندى مقاطعًا، طارق مجددًا، أدركت أنه قلق عليها لعدم ذهابها للجريدة لليوم الثاني على التوالي، وهي لم تتصل به أمس ردًا على مكالمته الصباحية الفائتة.

تواصل الرنين فلم ترد عليه. تعلم كم يغضبه ذلك.. في البداية كانت تسعد برغبته في الاطمئنان. ولكن بعد عدة مواقف اضطرت فيها لقطع أحاديث هامة للرد، بدأت تستثقل الأمر وتشعر بالحرج إزائه. ضغطت على زر كتم الصوت

وقررت مكالمته لاحقًا.

همَّت بأن تسأل الطبيب سؤالًا جديدًا ولكنها وجدته قد انهمك مع شيرين في حوار حول أسفارها وطبيعة عملها وتحدياته.

تعجبت ندى كيف انحسرت برودة المكان وقتامته لتُخيِّم على جلستهم الثلاثية الحيوية والدفء. أخذت تتأمل الملاحظات التي كتبتها، وجدت نفسها قد وضعت عدة دوائر حول كلمة «ثقة» وعدة أسطر تحت عبارة «شخص تثق به»، وفي لحظة اندلعت في رأسها فكرة جعلتها تهتف:

- عرفت كيف أساعد نجيَّة.

نظر إليها الطبيب وأختها في دهشة فاستدركت قائلة في خجل:

- آسفة قطعت حديثكما.

أجابها الطبيب باهتمام:

- كيف ستساعدينها؟

- سأكون أنا الشخص الذي تثق فيه، سأساعدها على اجتياز هذه الفترة العصيبة من المرض.

- وكيف ستفعلين ذلك؟

- لقد بدأت اليوم بالفعل في بناء أواصر الثقة فأتيتها بحلوى النعناع التي كانت تحبها، وصففت لها شعرها وتركت لها مرآتي كهدية. سوف أذهب إلى بيتها وآتيها بما طلبته مني وسأواظب على زيارتها حتى تأمن جانبي وتثق بي تمامًا.

امتقع وجه شيرين ووجهت كلامها للطبيب قائلة:

- أليس فيما تقول خطر عليها؟

أجاب الطبيب في جدية:

- يوجد خطر بالفعل، هكذا ستنغمسين أكثر من اللازم مع المتهمة وتفقدين حيادك.

لاحظ د. مراد تقطيبة وجه ندى حينما نطق بلفظ «متهمة» فأردف:

- هي متهمة، لا يجب أن ننسى ذلك، ليس فقط بتبديد ممتلكات الغير، وإنما بإيذاء الجيران وتعذيب وقتل حيوانات حتى وإن لم يكن هناك اتهام رسمي بذلك. نجيَّة تمثل خطرًا على مَن حولها، خاصة مع منع العلاج عنها في فترة الفحص.

سألته ندى بصوت حزين:

- هل هذا يعني أنني لن أزورها ثانية؟

أثار سؤالها الحيرة في نفس مراد، ووجد نفسه يسأل سؤالًا مختلفًا: «ألا يريد أن يرى الفتاتين ثانية؟ خاصة تلك الصهباء التي بددت قتامة عمله في المستشفى بعد فنجان واحد من القهوة السادة»؟!

أجابها بنبرة حاول أن يجعلها مهنية:

- أتفهم أهمية الزيارة لتقريركِ ودراستك. كل ما أرجوه ألا يحول تعاطفكِ معها دون إدراككِ لخطورتها. هي قادرة على العنف والإيذاء. هذا تشخيصي فخذيه في اعتبارك.

أومأت ندى برأسها فأردف:

- سأسمح لكِ بزيارة أخرى، في حضور عواطف الممرضة..

ثم نظر إلى شيرين وقال:

- والآنسة شيرين طبعًا.

ابتسمت شيرين وهي تومئ برأسها وتقف في إباء، بينما لملمت ندى أوراقها ودفتر ملاحظاتها، وانطلقت الشابتان إلى الخارج بكفين متشابكتين، يتماوج شعر إحداهما الناري بحيوية على كتفيها المشدودتين بينما تتأرجح كرة فرو وردية صغيرة من سحاب حقيبة ظهر الأخرى.

***

-18-

إلى الغد

اقتربت الفتاتان من سيارة والدتهما السيتروين الزرقاء القديمة. اتجهت ندى تلقائيًا نحو الباب المجاور للسائق، فالاتفاق السائد منذ سنوات أن المشاوير المشتركة بينهما تقود فيها ندى ذهابًا وشيرين إيابًا، إلا أنها فوجئت بشيرين تسبقها وتجلس في المقعد المجاور للسائق وتغلق الباب وهي تصفر لحن أغنية أجنبية رائجة.

طرقت ندى على الزجاج ولكن شيرين لم تلتفت لها وكأنها لا تسمعها. دارت ندى حول مقدمة السيارة وجلست في مقعد السائق وهي تزفر في حنق:

- أليس هذا دورك؟

أجابتها في برود كشفت ضحكتها اصطناعه:

- مزاجي رائق ولا أريد للقيادة أن تفسده.

- أنتِ مزاجكِ رائق؟ كيف؟ وما هي المناسبة؟

ابتسمت شيرين ولم تعلق فبدأت ندى القيادة حائرة من غموض أختها حينما رن هاتفها، أخرجته لها شيرين من

حقيبتها ومدته إليها ثم لاحظت اسم المتصل فأبعدته ثانية قائلة:

- ممنوع استخدام الموبايل أثناء القيادة.

هتفت ندى مستنكرة:

- أنتِ تقولين هذا؟ أنتِ التي تطلين أظافركِ أثناء القيادة؟

- ولكنكِ لستِ بمهارتي، في أيٍّ من الأمرين.

فهمت ندى دافع أختها فسألتها:

- طارق المتصل أليس كذلك؟

- لا أسمعكِ من صوت الـ «دي جي».

خبطت ندى على المقود في غيظ وقد علمت أنها لن تصل مع أختها لشيء.

بعد قليل قالت شيرين في هدوء:

- ندى، أنتِ تستحقين مَن هو أفضل منه، هذا الشاب بارد المشاعر، ولا يحبك.

- صحيح، والدليل قلقه عليّ واتصالاته المتكررة.

- اتصالاته ليست قلقًا، بل هي سيطرة، طارق يتلذذ بالسيطرة عليك. ألا تلاحظين كيف يتلاعب بك؟ حينما

تنصاعين له يتمنع وحينما تبتعدين يأتيكِ هرولة.

- يأتيني لأنه يحبني.

قالتها ندى بوجوم فأجابتها أختها بإصرار:

- بل لأنه يتلذذ بالسيطرة عليك.

لاحظت شيرين احمرار وجنتي أختها وارتأت أنها على وشك البكاء، ستصلان لنفس النقطة مثل كل مرة، حيث تخسر شيرين ويكسب طارق. قررت تغيير إستراتيجيتها فقالت:

- انظري! أنا لن أفتح معكِ هذا الموضوع ثانية، ربما أنتِ محقة.

ثم أمسكت بهاتف أختها وطلبت رقم طارق وفتحت مكبر الصوت ووضعت الهاتف على مقدمة السيارة. بعد رنة واحدة أجاب طارق صارخًا في ندى فتلعثمت هي، بينما قالت شيرين:

- طارق، أنت على مكبر الصوت، ندى تقود السيارة.

انقشعت ثورة طارق حينما سمع صوت شيرين، وأخذ يذكّر ندى بقلقه عليها وحبه لها. تمتمت ندى ببضع كلمات خافتة وأنهت المكالمة وهي تركز نظراتها على الطريق دون أن

تتفوه بأي كلمة.

في المساء، اقتربت منها شيرين واحتضنتها قائلة:

- لديَّ رحلة فجرًا، تعلمين أني لا أستطيع السفر ونحن متخاصمتان.

اغتصبت ندى ابتسامة وأخبرتها بأن كل شيءٍ على ما يُرام، ثم دخلت حجرتها وأخرجت أوراق نجيَّة واحتضنتها متفكرة في خطوتها التالية..

***

نامت ندى..

ورأت في الحلم نجيَّة، وكأنها ترد لها الزيارة.

رأتها جالسة على مقعد خشبي ومن وراءها ضوء ساطع طمس ملامحها. كانت تصدر أصواتا غريبة ولا تتكلم، اقتربت منها ندى فوجدت فمها مغلقًا بشريط لاصق شفاف يمنعها من الكلام، كانت تهمهم وتشير إلى جهة اليمين. لم تكن خائفة ولا حزينة، فقط بدا عليها أنها حريصة على إبلاغ ندى بأمرٍ ما. نظرت ندى صوب ما أشارت فوجدت بابًا أزرق دلفت منه لتجد نفسها في غرفة مليئة بصور لنجية تغطي الجدران وتملأ البراويز العتيقة الموضوعة على رفوف خشبية متناثرة

كساها الغبار. بينما ظلت همهمات نجيَّة الملحة تأتيها من بعيد.

بعد نوم مضطرب، استيقظت ندى وصورة نجيَّة الوادعة لا تفارق خيالها. عيناها في الحلم كانت مختلفة عنها في الحقيقة، كانت تحمل لمعة البراءة التي تبحث عنها ندى.. تدثرت ندى بغطائها، ولكنها لم تستطع النوم ثانية فقامت وتوضأت وصلت الفجر، ثم جلست على سجادة الصلاة تفكر في الرسالة الغامضة التي أرادت نجيَّة أن تُبلغها إياها في الحلم.

الصور!

نعم الصور التي طلبتها نجيَّة من منزلها. يبدو أنها تمثل لها أهمية كبرى. وبرغم عزيمة ندى القاطعة في تحقيق رغبة الست نجيَّة إلا أنها لم تعرف كيف.

بعد الكثير من التفكير والتردد، استقر عزم ندى على أن تحاول مع المقدم عاصم، تعلم أنه متجهم على الدوام، وأغلب الظن أنه لا يحبها، ولا يحب خالها بالطبع. إلا أن الاتصال به سيكون أقصر الطرق لتلبية رغبة السيدة الوحيدة، فإن لم يستجب - كما تتوقع - سيتعين عليها طلب المساعدة من خالها عبر طريق أطول.

أتمت ارتداء ملابسها استعدادًا للذهاب إلى الجريدة. أمسكت بهاتفها، حسمت أمرها ففتحته وضغطت على زر الاتصال.

أتاها صوت المقدم عاصم باشًا مرحبًا على غير ما توقعت:

- كنت أعتزم الاتصال بكِ كي أطمئن على زيارتكِ للمتهمة.

شجعها اهتمامه على أن تُفضي له بطلبها، ولكن حينما سألها عن السبب، ترددت..

قررت إخفاء السبب الحقيقي عنه. فمَن هو ضابط الشرطة الذي سيقتنع برغبتها في تحقيق طلب لسيدة لم ترَها غير مرة واحدة، متهمة، وغير سوية نفسيًا. قالت له:

- أحتاج لتصوير الشقة من أجل التحقيق.

- هذا غير قانوني. ولكن لدينا بعض الصور للمكان، يمكنني أن أمدكِ بها.

أُسقط في يدها فصمتت، ثم تقمصت شخصية شيرين ورمت بمحاولة أخيرة:

- هناك زوايا معينة أريد التركيز عليها، كما أن زيارتي ستمدني بالرؤية الشخصية الغنية بالتفاصيل والتي يفضلها القراء عن الرؤية الرسمية.

شعرت بسخافة ما تقول إلا أنه ولدهشتها قَبِل حجتها قائلًا:

- إذن مرِّي عليَّ بالقسم غدًا في العاشرة صباحًا لنذهب سويًّا.

فرحت.. ثم توقفت عند «سويًّا» وتلعثمت، هل يعني ذلك ركوبها «بوكس» الشرطة معه؟ أم ستركب معه في سيارته الخاصة؟

- هل يمكن أن نلتقي عند البناية نفسها؟ كي آخذ وقتي في تصويرها من الخارج وتصوير المنطقة قبل موعدنا.

قَبِل عاصم ما قالت وأملى عليها العنوان ثم أنهى المكالمة قائلًا:

- إلى الغد.

وضعت هاتفها وهي تردد لنفسها:

- إلى الغد..

***

-19-

نرجسية!

وصلت ندى إلى مقر الجريدة واتجهت نحو غرفة المكتب العتيقة. كانت مدام كوثر في المطبخ تُعد كوبًا من الشاي، ولكن ما إن رأت ندى تدخل حتى تركت ما في يديها وتبعتها وعلى وجهها ابتسامة غريبة. اقتربت ندى من المكتب فداعبت أنفها رائحة زكية في واقعة هي الأولى من نوعها في الجريدة باستثناء معطر الجو الرخيص الذي يحتفظ به خالها في مكتبه ولا يبخ منه سوى للضيوف من ذوي الأيادي البيضاء.

وجدت على طاولة المكتب باقة كبيرة من الورد الأحمر ملفوفة بشريط ذهبي. شهقت وهي تقترب من البطاقة المثبتة عليها لتجدها مهداة إليها ومذيلة بإمضاء طارق.

أمسكت ندى بالباقة ورفعت عينين سعيدتين واستدارت بجسدها لتجد طارق واقفًا أمامها بابتسامته الواثقة التي اتسعت إزاء رد فعلها. كانت فرحتها بالورد كبيرة، فهي لم تتلقَّ وردًا من قبل باستثناء مرة واحدة في أحد أعياد الربيع منذ عدة سنوات، وكانت هي مَن اشترتها! ضعفت أمام الزهور الزاهية التي امتلأت بها واجهات محال الزهور

المتناثرة حول مبنى الجامعة. توقفت عند أحدها واشترت لنفسها باقة صغيرة مبهجة. ولكن ابتسامة البائع اللزجة وتعليقه السمج عن حبيب منتظر جعلها تُحجم عن تكرار التجربة ثانية.

- جميل الورد.

التفتت ندى في سعادة نحو قائلة العبارة لكي تؤمِّن عليها، ولكن سرعان ما بهتت ابتسامتها أمام نظرة مدام كوثر التي نجحت في تحميل عبارتها بنبرة ذات مغزى مع مصمصة شفاه أعادت لندى ذكرى البائع اللزج فتراخت ذراعها الممسكة بالورد لتضعه على المكتب في صمت. سألها طارق دون أن يلاحظ توتر الأجواء:

- أعجبتك؟

أومأت له برأسها فاتسعت ابتسامته وهو يخبرها بزهو كيف استنتج أن الزهور الحمراء هي ما تفضله بسبب استخدامها لرمز الوردة الحمراء كثيرًا في المحادثات بينهما دون باقي الزهور. ثم أسهب في إخبارها كيف كان حريصًا على أن يأتيها بما تحب إذ إنه دومًا قادر على قراءة ذوق الشخص بفراسته قبل أن يشتري له هدية.

سرحت ندى مع كلماته.. لقد حوَّل باقتدار الأمر ليدور

حوله، تذكرت وصف شيرين له: «نرجسي»، أهو كذلك حقًّا؟ لقد درست الشخصية النرجسية في الكلية ولكنها لم تعطها اهتمامًا يُذكر مطمئنة نفسها في حينها بأنه لا يوجد في حياتها أي شخصيات نرجسية. يبدو أن عليها مراجعة ما درست!

لاحظ طارق شرودها فعبس ونقر بيده على المكتب قائلًا بحدة:

- ما الذي شغلكِ عني.

اغتصبت ابتسامة سريعة وهي تقول:

- أفكر في مهمة الغد.

اتسعت عيناه وهو يسأل:

- وما هي؟

ندمت من فورها على الإتيان بخطة الغد أمامه، ندم أتى متأخرًا. اضطرت لإخباره بعزمها زيارة بيت نجيَّة. فاجأها برد فعله:

- عظيم، ستكون فرصة جيدة كي أعطيكِ درسًا في تصوير مسرح الجريمة.

أُسقط في يدها واختفى صوتها وهي تهز رأسها في عجز.

سألها عن الموعد، فأخبرته بأنها لم تتفق بعد مع المقدم عاصم. كذبة بيضاء أملت أن تنقذها، ولكن وجه طارق تجهم مع ذكرها لاسم المقدم، فقال بجفاء وهو يبتعد:

- حددي الموعد إذن وأخبريني به.

لم يحاول طارق الاحتكاك بها ثانية. مرت الساعات الأولى من اليوم مملة كعادتها في الجريدة بلا عمل يُذكر فقررت أن تمضي بقيته في القراءة عن الشخصية النرجسية. ثم تذكرت الورد، قامت تبحث عن مزهرية تنقذه من الذبول، فلم تجد سوى زجاجة مياه معدنية كبيرة أسفل حوض المطبخ فقصت فوهتها وملأتها بالمياه ووضعت فيها الورد الذي بدا لها أنه فقد رائحته وجماله!

***

في المساء، اعترى ندى التردد، هل ترسل لطارق الموعد والعنوان؟ تساءلت عن رد فعله حينما يجد نفسه أمام المقدم عاصم وجهًا لوجه، أو وجهًا لكتف إن جاز التعبير لفارق الطول بينهما. أرسلت لشيرين كي تأخذ رأيها ولكن بدا أن هاتف شيرين مغلق، وتذكرت عبارتها التي لم تفتأ تكررها:

- خذي قراراتكِ بنفسك، أنا لن أكون موجودة من أجلكِ في كل وقت.

شيرين محقة، قالتها ندى لنفسها وقد تملكتها روح المغامرة، قررت الخروج من المسار الآمن ولو ليوم واحد وليكن ما يكون.

فصلت «الإنترنت» عن هاتفها وجعلته في وضع الصامت ووضعت رأسها على الوسادة ونامت.. تحلم بالغد.

***

-20-

في شقة نجيَّة

في تمام العاشرة صباحًا، أوقف المقدم عاصم سيارته على بعد أمتار من بناية العباسية حيث تقبع شقة نجيَّة. كان يعلم أن ما يفعله غير قانوني وأنه ليس له حق دخول العين إلا بإذن من النيابة، ولكنه لم يستطع رفض رغبة الفتاة الرقيقة صاحبة الأهداب الذهبية والعينين بلون العسل الصافي. أقنع نفسه بأن حارس العقار لن يمانع، وكيف له أن يجرؤ! مغامرة صغيرة لن تضر، خاصة أن الشقة لا تُعتبر مسرحًا لجريمة قتل أو ما شابه.

أصوات الباعة الجائلين وأبواق السيارات والغبار المتطاير من حوله، كل ذلك توارى حينما لاحت له ندى من بعيد..

وقف يتأملها في شرود وهي تصور البناية بهاتفها المحمول. ما زال عند انطباعه الأول عنها، تبدو أصغر من سنها، فلا تعدو في نظره بقامتها القصيرة وعفويتها كونها طالبة جامعية. كانت ترتدي سروالًا من الجينز وقميصًا أبيض كالعادة، ولكن هذه المرة استبدلت بغطاء رأسها ذي اللون الواحد آخر تزينه زهور صغيرة تغلب عليها ألوان الربيع. اقترب منها فوجد أن ألوان الزهور التي تحاكي لون عينيها

جعلتها تبدو أكثر إشراقًا.

حاول أن يرخي عضلات فكيه المشدودة إثر مكالمة ميهان الصباحية المعتادة. رسم على شفتيه بسمة وهو يحييها. حيته ندى بدورها ونظرت صوب مدخل البناية بانتظار أن يدلفا إليها سويًا. تحرك معها وما إن خطت أقدامهما إلى المدخل الفسيح حتى ظهر بغتة ومن العدم رجل ضخم ذو شارب أسود عريض وجلباب رمادي واسع قد بهت لونه. حيًا الرجل المقدم عاصم باسمه بتبجيل مبالغ فيه أكد لندى أن حارس العقار يعرف الضابط جيدًا. تقدمهما الرجل عبر المدخل المعتم الرطب الذي نحلت درجاته الرخامية بفعل الزمن.

عمارة قديمة بُنيت في زمن كان الناس فيه أسخياء في المساحة وفي الجمال، فتناثرت في المدخل الفسيح مزهريات نحاسية ضخمة، فقدت لونها إلا أنها ظلت عامرة بالنباتات الوارفة النضرة. المرايا الكبيرة على جانبي المدخل تشوهت بالعديد من الملصقات التي غطت صفحتها، والتي جعلتها محاولات السكان لنزعها تترك آثارًا أكثر بشاعة من بقائها.

نظرت ندى إلى المرآة على اليمين فوجدت نفسها أشبه بنقطة بين حرفي ألف لفارق الطول بينها وبين الرجلين

فابتسمت خجلة ومدت خطاها كي تلحق بهما أمام المصعد. مصعد متهالك، غطى الصدأ حديده المشغول وتراقص بابه الداخلي المثبت بمفصل واحد من أعلى ليشي بالسقوط في أية لحظة. ركب الثلاثة معًا وأبرز الحارس قطعة بلاستيكية صغيرة من سلسة مفاتيحه العملاقة ووضعها على لوحة إلكترونية بداخل المصعد موضحًا:

- قليل من الجيران يدفعون صيانة المصعد لذلك اتفقوا على قصره عليهم. الست نجيَّة لم تكن تدفع، ولكنكم ضيوفي.

وأتبع عبارته بابتسامة واسعة كشفت عن أسنان صفراء ضخمة ذكَّرت ندى بقصة ذات الرداء الأحمر.

وقف ثلاثتهم في الطرقة الواسعة أمام باب الشقة، شعرت ندى برهبة والحارس ينحني على قفل الباب ويدس فيه المفتاح. فُتح الباب فهبّت عليهم رائحة نتنة جعلت ثلاثتهم يغطون أنوفهم بكفوفهم. أسرع الحارس إلى الداخل يفتح باب الشرفة قائلًا في شبه اعتذار:

- الشقة تحتاج إلى تهوية، فهي مغلقة منذ أن رحلت الست نجيَّة.

ثم أردف مخفضًا صوته:

- الله يشفيها لم تكن تهتم بنظافة الشقة أبدًا، كما أن جثة القرد..

ثم أشاح بكفه وأضاف:

- تعلمون طبعًا.

تزايد الشعور بالرهبة لدى ندى، شعرت بشيءٍ ثقيلٍ يجثم على صدرها ويكتم أنفاسها، شيء بخلاف الرائحة التي خفت بفعل التهوية، أو ربما لأنهم اعتادوا عليها.

ابتسم لها المقدم عاصم مشجعًا:

- هيَّا، يمكنكِ أخذ الصور كما ترغبين.

قالها ثم اتجه نحو باب الشقة. شكرته ندى بإيماءةٍ من رأسها متوقعة أن يتبعه الحارس إلا أنه لم يفعل. وقف عاقدًا ذراعيه أمام صدره يراقب ندى بوجهٍ متجهم. عاد عاصم فسحب الحارس من ذراعه إلى الخارج فلم يُبدِ مقاومة تُذكر، بيد أن نظراته ظلت ترمقها حتى خرجا إلى حيث انتظراها بخارج الشقة.

تأملت ندى ما حولها..

صمت ثقيل خيم على المكان برغم الشرفة المفتوحة والمطلة على الشارع الرئيسي، صمت أنذر بشرٍّ في الأجواء

لم تستطع ندى تحديد سببه أو مصدره.

بدا من الواضح أن صالة المنزل الفسيحة أُثثت في ثمانينيات القرن الماضي. تقطّع ورق الحائط في أكثر من موضع وبهت لون باقات الأزهار الدقيقة التي زينته. تناثرت قطع الأثاث وسط كم كبير من بقايا الطعام المتراكمة فوق الأسطح وعلى المقاعد وسط الأتربة والعديد من الأوراق والمجلات. لفتت نظر ندى مكتبة خشبية ضخمة حشرت في زاوية ضيقة بجوار الشرفة. مكتبة شبه فارغة إلا من بضعة كتب لمصطفى محمود ونسخة قديمة من مجلة «المختار»، وبرواز خشبي صغير به صورة.. والكثير من الغبار.

مدت ندى يدها وأخذت الصورة تتأملها.. أسرة صغيرة سعيدة.

تذكرت افتتاحية رواية «آنا كارنينا»: «كل العائلات السعيدة تتشابه، كل عائلة غير سعيدة، غير سعيدة بطريقتها الخاصة».. بالتمعن في الصورة، أدركت أن تولستوي محق، هذه أسرة غير سعيدة ولكن بطريقتها الخاصة!

أب وأم يتوسطهما طفلان ميزت منهما نجيَّة بسهولة، بعينيها الضيقتين وأنفها المعقوف الضخم. ولكن شعرها لم يكن مهوشًا، بل كان مرتبًا في ضفيرتين جميلتين، ولم يكن ظهرها قد احدودب بعد. وقف بجوارها أخوها بقامة أقصر

منها وسنٍّ ناقصة وشقاوة أطفال تتقافز من عينيه. كان أبوها يقف متهدل الكتفين وقد ارتفعت زاويتا عينيه الخارجيتين إلى أعلى وانفرجت شفتاه في شبه ابتسامة. أما أمها فوقفت في صرامة بوجهٍ خالٍ من لمحة حنان أو أمومة، خالٍ من أي شيء!

كانت أشبه بمديرة لمؤسسة عقابية تنقصها فقط عصا حديدية في يدها. انقبض قلب ندى وهي تتأمل نظرة الأم الحادة ووقفتها المشدودة وفمها المزموم..

وجه غاب عنه الرحمة!

وجه يتناقض بشدة مع ابتسامة ابنتها البريئة وعينيها اللامعتين المملوءتين بالأمل والنهمتين للحب.

عرفت ندى حينها، كيف ولماذا انطفأ بريق هاتين العينين.. إلى الأبد!

***

أخرجت ندى الصورة من إطارها ومسحت عنها الأتربة بمنديلها ووضعتها في حقيبتها. بدأت في تصوير أركان الشقة وهي تتخيل حياة ساكنيها راغبة في تكوين صورة بانورامية كبيرة للمكان. لم تدرِ بمرور الوقت إلا حينما وجدت المقدم عاصم بصحبة الحارس يسألها إن كانت قد انتهت.

أومأت برأسها وهي تعيد هاتفها إلى حقيبتها متجاهلة للمرة الخامسة أزيزه الذي تعالى بعد أن أبقت رنته مغلقة منذ الليلة السابقة.

ابتسمت ندى للمقدم عاصم وهمَّت بالخروج من الشقة حينما قال الحارس على استحياء:

- يا سعادة الباشا، الجيران يشتكون من رائحة الشقة، يقولون إن قذارتها سبب الصراصير التي ملأت البناية. كانوا على وشك كسر بابها أمس لتنظيفها، لولا أن هددتهم بأنها تحت أمر الحكومة. ما العمل؟

ظهرت الحيرة على وجه عاصم وهو ينظر إلى أكوام القاذورات التي امتلأت بها الأركان. الجيران محقون، وحتى الآن لم يهتم أحد من أقارب المتهمة. هَمَّ بالرد على الحارس حينما فاجأته ندى بردها إذ طلبت أكياس قمامة كبيرة.

نظر إليها الرجلان في دهشة، فأشاحت بوجهها وبدأت بجمع المجلات المتناثرة ونفضها قبل أن تنظمها في المكتبة. هي نفسها لم يكن لديها تفسير لمبادرتها تلك. كان عليها أن تكون في مقر الجريدة بعد أقل من ساعة، ثم إنها لا تجيد الأعمال المنزلية ولا تحبها فكيف تطوعت لتنظيف منزل لا يخصها وفي حالة مزرية. فتشت بداخلها فلم تجد سوى إحساس غامض بالتعاطف مع نجيَّة، ورغبة في ألا يقتحم

منزلها ولا ينهش ذكرياتها غريب.

كانت تنفض مجلة أخيرة حينما وقعت من بين طياتها بضع وريقات متجعدة. ذكرتها بوريقات نجيَّة، ولكن الخط كان مختلفًا، دقيقًا ومنمقًا. دعاها هاتف داخلي لدسّ الوريقات في جيبها، ففعلت دونما تفكير.

رفعت رأسها فوجدت عاصم واقفًا يتأملها بعد أن صرف الحارس لكي يأتيها بما طلبت.

ارتبكت ولم تدرِ كيف تتصرف، لم يبدُ عليه أنه لاحظ ما اختلسته لتوها. ارتبك حينما أدرك أنها لاحظته، أنَّب نفسه على وقفته الغريبة غير المبررة، فتقدَّم في صمتٍ متظاهرًا بمساعدتها.

بحثت ندى عن مهمة سريعة تُخرجها من حرج الموقف فركعت على ركبتيها وبدأت تجمع زجاجات المياه والمشروبات الغازية من على الأرض. مدَّ عاصم يده ورفع صحفة بها بقايا طعام من على المنضدة، قامت ندى واقفة فارتطم رأسها بالصحفة وتناثرت بقايا الطعام على رأسها وكتفيها. اضطرب عاصم وأخذ يحاول نفض حبات الأرز وعظام الدجاج المُتكلِّسة عن ندى حينما ارتفع صوت شخص.

شخص تعرفه ندى جيدًا..

***

-21-

مبتذل إلى حد لا يُصدق

- ما الذي يحدث هنا؟

هتف بها طارق بصوته الحاد جازًّا على أسنانه فيما بدا مجهودًا عظيمًا لضبط النفس. التفتت إليه ندى مدهوشة وقد بدا عليها الارتباك، أما عاصم فتوقفت يداه في الهواء وهو ينقل نظراته بينهما محاولًا فكَّ شفرة الموقف، ثم ما لبث أن سأل:

- مَن أنت؟

- خطيبها..

أجابه طارق بصلفٍ وهو يشير إلى ندى التي فوجئت بجرأته فتجهم وجهها وقالت:

- هذا طارق.. زميلي في الجريدة.

ارتجَّ الأمر على عاصم، كان متأكدًا أنه لم يرَ أثرًا لخاتم خطبة أو زواج في يد ندى، اختلس نظرة إلى يدها اليمنى متثبتًا فوجدها خالية. رفع رأسه وشد من قامته قائلًا بنبرةٍ سلطوية:

- هنا مسرح جريمة، ليس من حقك التواجد دونما تصريح.

- مسرح جريمة أم مسرح مداعبة؟

اتسعت عينا عاصم وبرزت عروقه وهو يتحرك نحو طارق الذي تراجع خطوتين إلى الخلف لا إراديًّا.

أسرعت ندى بالوقوف بينهما قائلة:

- عليّ الذهاب الآن.

قالتها وخرجت من الشقة مسرعة وقد احتقنت عيناها بالدموع. انتهز طارق الفرصة وخرج وراءها تاركًا عاصم وحده وسط التساؤلات والقاذورات والرائحة ونظرات الحارس الفضولية.

***

عادت ندى إلى حجرتها واحتمت بفراشها تاركة لدموعها العنان وهي لا تعلم لماذا تبكي بهذه الحرقة. تذكرت كيف جرت على سلالم بناية العباسية دون انتظار المصعد، وكيف حاول طارق اللحاق بها، وكيف استقلت سيارتها وانطلقت برغم غمامة الدموع التي حالت بينها وبين الطريق.

استرجعت ما حدث، اختناق مفاجئ انتابها حينما اقتحم طارق المكان وأطلق تصريحه المباغت بخطبتهما. اعترفت

لنفسها بأنه ربما لو كان فعل ذلك قبل أيام لكانت حلّقت في سماء السعادة بل وفرحت من مباغتته واعتبرتها مفاجأة رومانسية تشي بحبه.

ولكن اليوم، وفي شقة نجيّة.. بدا الأمر سخيفًا ومبتذلًا إلى حدٍّ لا يُصدق.

نظرت في ساعتها، ما زال الوقت ظهرًا. شعرت بحاجتها للهروب من أفكارها وفعل شيءٍ ما. قررت الذهاب إلى نجيّة وتسليمها الصورة. تذكرت وعدها لشيرين بألا تذهب من دونها، ولكنها تحتاج لحدث يلهيها، ويمثل في ذات الوقت حجة مقنعة لرئيس التحرير تبرر بها غيابها عن الجريدة مجددًا. اتخذت قرارها وسحبت حقيبتها وخرجت.

***

بعد الإجراءات المعتادة للدخول وجدت ندى نفسها تقف وجهًا لوجه أمام نجيّة الوادعة والممرضة تراقبهما من طرف خفي مستعدة للتدخل في أي وقت. رفعت نجيّة إلى ندى عينين متسائلتين، فأجابت هي نظرتها بأن أخرجت صورة أسرتها بحرص من حقيبتها وأعطتها إيّاها.

أخذت نجيّة الصورة وتأملتها متمهلة، افتر فمها عن ابتسامة صغيرة ثم بدأت تلوي الصورة ببطءٍ من المنتصف

حتى قطعتها إلى نصفين. قامت متثاقلة نحو سلة القمامة، رمت فيها أحد نصفي الصورة وعادت فجلست والنصف الآخر في يدها، رفعته إلى فمها وقبّلته.

أبقت شفتيها ملتصقة بوجه أبيها طويلًا حتى انسدلت عبراتها. أبعدت نصف الصورة في حرص كي لا تطالها الدموع، ونظرت فيها نظرة أخيرة قبل أن تضعها من يدها وترفع رأسها نحو ندى وتهمس:

- شكرًا.

ثم بدا عليها أنها انتبهت لشيءٍ ما فمسحت دموعها وسألت في وجل:

- أين غالب؟

- مسافر.

عارضتها نجيّة قائلة بصوتٍ رقيق:

- غالب في المنزل.

- لم أجد له أي صورة في المنزل.

شهقت نجيّة وهي تهتف:

- هل أخذوا صورة زفافنا؟

تذكرت ندى صورة الزفاف الكبيرة المعلقة فوق الفراش في غرفة النوم فأجابتها:

- الصورة في مكانها.. صورة جميلة.

- أريدها. أريد غالب بجواري.

أومأت ندى برأسها وهي تتساءل كيف تأتيها بها.. فكرت في أن تنزعها من إطارها الخشبي وتلفها في أسطوانة، أو ربما تصورها بالهاتف وتطبعها على مساحة أصغر.

سمعوا طرقًا على الباب، فتحته الممرضة بواسطة المفتاح الذي لا يفارقها فوجدت أمامها د. مراد ينظر إلى ندى في حيرة.. اندهشت الممرضة لظهوره متسائلة:

- دكتور مراد؟ لم يحن موعد مرورك المسائي بعد، هل هناك مشكلة؟

أجابها مرتبكًا:

- ظننت.. أنكم ستحتاجونني من أجل الحالة، أعني المتهمة.

لاحظ تقطيبة ندى فاستدرك قائلًا:

- أعني نجيَّة.

ثم قلب نظره في الحجرة قبل أن ينظر إلى ندى متسائلًا:

- أنتِ وحدك؟

لم تفهم ندى سؤاله وهي ترى حولها الممرضة ونجيَّة، أشاح بيده قائلًا:

- لا بأس، أنا في مكتبي إن احتجتِ أي استشارة.

خرج الطبيب بينما همست الممرضة في شرود:

- غريبة، ما الذي جاء به؟

***

لم تكن ندى عازمة على المرور بمكتب الطبيب، ولكن سؤال نجيَّة المتكرر عن زوجها الهارب منها أثار فضولها، لم تفهم كيف لا تزال تحبه وتهتم بأمره بعد هجرانه لها. أفضت بتساؤلاتها لدكتور مراد فأجابها:

- متلازمة ستوكهولم.

فهمت ندى مقصده، كيف لم تستنتج هي ذلك وحدها؟ متلازمة ستوكهولم تفسير منطقي لموقف نجيَّة غير المنطقي من غالب. تعاطُف الشخص مع مَن أساء إليه والشعور نحوه بمشاعر إيجابية هو ظاهرة نفسية شهيرة، فسَّرها العلماء بأن تضامن الضحية مع المعتدي هو إحدى طرق الدفاع عن الذات. الغريب في الأمر، أن نجيَّة الأولى

كاتبة الأوراق كانت ناقمة على غالب ولم تفتأ تكرر كم أساء لها.

ما الذي تغير؟

***

في المساء، عادت شيرين من رحلتها فحكت لها ندى أخبارها. التمعت عينا شيرين وهي تستمع لتفاصيل زيارة نجيَّة ثم ظهرت ابتسامة جانبية على شفتيها وهي تعقب:

- جيد.

اندهشت ندى من رد فعل أختها بعد أن توقعت منها أن تغضب لإخلالها باتفاق الزيارة. شيرين أعادت رأسها للوراء وقالت بعينين نصف مغلقتين:

- هناك أشياء تحتاج لنار هادئة كي تنضج..

- ماذا تعنين؟

- ما هي آخر أخباركِ مع طارق؟

تنهدت ندى وهي تحكي لأختها ما فعله معها بشقة نجيَّة فاستشاطت غضبًا قائلة إنه قد تعدى حدوده وأظهر حقيقته المسيطرة، حتى إنه لم يكلف خاطره بسؤال فتاته عن رأيها قبل إعلان خطبتهما المزعومة.

ثورة شيرين وأوصافها الحادة لطارق جعلت ندى تتعاطف معه، وتبرر ما فعله بحبه لها وغيرته عليها ورغبته في أن يجمعهما الرباط المقدس. اتسعت عينا شيرين وهي تستمع لأختها ثم أخذت نفسًا طويلًا وتمالكت نفسها وصمتت. صمتت تمامًا ثم قالت بصوتٍ محايد:

- أريد أن أرى صور شقة نجيَّة.

جاء التغيير المفاجئ للموضوع على هوى ندى فلم تعقب. فتحت هاتفها وأعطته لشيرين التي أخذت تقلب في الصور منتقدة قذارة الشقة. ماذا لو شمت رائحتها؟ فكرت ندى. استمرت شيرين في مشاهدة الصور حتى توقفت عند صورة نجيَّة مع أسرتها التي احتفظت ندى بنسخة منها على هاتفها، هتفت شيرين مدهوشة:

- ما هذا؟

نظرت ندى للصورة وهي تجيبها في تأثر:

- والدة نجيَّة، صح؟ نظرتها تُجمِّد أكثر القلوب دفئًا.

- نظرة! وهل ألاحظ أنا النظرات؟ هذا تخصصكِ حبيبتي.

قالتها ساخرة ثم أشارت بإصبعها إلى بقعة ما خلف الأفراد الواقفين في الصورة قائلة:

- هنا..

***

-22-

الخزانة

أشارت شيرين بسبابتها إلى بابين خشبيين متقابلين ظهرا بوضوح خلف أسرة نجيَّة في الصورة، ممَّا بدا كخزانة مدفونة في الحائط فلا يظهر منها سوى مصراعيها، يحيط بها ورق الحائط الذي يغطي باقي الجدار كإطار من باقات الزهور. بينما ظهرت المكتبة الخشبية الضخمة يمين الصورة زاخرة بالكتب، وعلى اليسار بدت الشرفة بوضوح. قبل أن تتساءل ندى عمَّا تعنيه أختها، فتحت لها شيرين إحدى الصور التي التقطتها ندى للشقة وأشارت إلى ذات الموضع قائلة:

- هنا حُشرت المكتبة حشرًا في الحائط الضيق بجوار الشرفة، بينما مكانها القديم أكثر ملاءمة، تُرى ما السبب في نقلها؟

- ولماذا استغنوا عن خزانة الحائط؟

صمتت الفتاتان للحظة ثم هتفت ندى:

- أتعلمين.. لقد رأيت في شرفة الشقة رفوفًا خشبية مهملة تلائم تلك الخزانة.

- لو كنَّا في رواية بوليسية لقُلت إن هناك جثة مخبأة فيها.

قالتها شيرين ضاحكة.. أما ندى.. فلم تضحك!

***

نامت ندى ليلة مليئة بالكوابيس، واستيقظت غارقة في عرقها. لم تستطع التوقف عن التفكير في شقة نجيَّة، ورائحتها العطنة التي لم تتبدد.

أمسكت بهاتفها عازمة على تتبع الأمر وقد شعرت بدفعة مفاجئة من الأدرينالين تجري في عروقها.

استقبل عاصم مكالمتها بترحاب. لم يفكر كثيرًا فيما قالته، بل وجد نفسه بعد أقل من ساعة واقفًا معها مجددًا في مدخل بناية العباسية. لاحظ حيويتها بعد رحيلها الباهت في اليوم السابق ولمعة في عينيها الذهبيتين جعلتهما أكثر إشراقًا من شمس الضحى المتوهجة..

سألها عمَّا تبحث عنه هذه المرة. لم تجد إجابة سوى أن حدسها يخبرها بأشياء، والصور بها دلالات ما. ابتسم لها وهو يحرك رأسه غير مصدق أن ذلك ما جاء من أجله. تحرك نحو المصعد، تبعته مسرعة فأبطأ من خطواته الواسعة كي تلحق به ثم صعدا مع الحارس إلى شقة نجيَّة.

اندلعت الرائحة في وجوههم فور دخولهم. لم تأبه لها ندى بل انطلقت صوب المكتبة الخشبية الضخمة، وطلبت من الحارس زحزحتها، نظر الحارس إلى عاصم مستريبًا فأومأ له برأسه، ثم اقترب منه وشمر أكمام قميصه عن ساعديه لمعاونته.

لحظات وانتقلت المكتبة الخشبية إلى اليمين في موضعها السابق. وقف الرجلان - تلتمع حبّات من العرق على جبين عاصم، والكثير من العرق يتفصد من وجه الحارس - يتبادلان النظر أمام الحائط المصمت الذي ظهر وراء المكتبة دون أن يُدركا هدف ندى من الأشغال الشاقة التي قاما بها.

حدقت ندى في الحائط غير مدركة أين اختفت خزانة الجدار التي رأتها في الصورة!

لاحظت أن الحائط قد طُلي حديثًا دونًا عن باقي جدران الشقة فلم يكُن هناك أثر للخزانة الخشبية، ولا لورق الحائط القديم الذي كان يُفترض به إحاطتها كالإطار مثلما ظهر في صورة أسرة نجيّة.

فتحت ندى الصورة على هاتفها وأشارت لعاصم على الخزانة الخشبية. تمعَّن فيها عاصم ثم نظر إلى الحائط أمامهما والذي برغم طلائه الحديث ظهرت عليه بعض التشققات. قام بالدق على الحائط المزعوم فتعالى صوت

أجوف. عقد حاجبيه متفكرًا في الأمور التي تعقدت من حوله. وجوده بالشقة غير قانوني، لا يستطيع الحفر أو التكسير دون إذن من النيابة. قرر الاتصال بوكيل النيابة صديقه الذي يعلم أنه بإمكانه التجاوز عن وجوده غير المبرر بالشقة واستخراج إذن نيابة سريع يُمكِّنه من اكتشاف ما يُخبئه الجدار.

ظل ثلاثتهم في حالة انتظار قلق..

لاحظت ندى وجه الحارس المحتقن والعرق الذي ما زال يلتمع على وجهه برغم جو الشقة البارد نسبيًا. تعاطفت معه، بالتأكيد يشعر بمسئولية ولو جزئية ممّا يحدث. ودَّت لو طمأنه عاصم قليلًا ولكنه بدا متجهمًا ومنشغلًا فآثرت الصمت. لحظات واستقبل عاصم مكالمة هاتفية أعطته الضوء الأخضر. بصوتٍ أجش ونبرةٍ صارمة، أمر عاصم الحارس بالإتيان بأدوات مناسبة للتكسير حتى تصل القوة. ازداد وجه الحارس احمرارًا حتى بدا وكأنه سيفقد وعيه، إلا أنه فرَّ ينفذ الأوامر بينما وقفت ندى على مقربة تنقل ثقلها بين قدميها في اضطراب.

اقترب منها عاصم وحاول إقناعها بالرحيل على أن يبلغها بالأخبار أولًا بأول. رفضت، وظهر في عينيها عناد طفولي لم يستطع تجاهله. طلب منها الانتظار خارج الشقة حتى

ينتهوا. انصاعت لطلبه، وسرعان ما تصاعد صوت التكسير..

استمر الطرق لدقائق طويلة قبل أن يتوقف بغتة. تناهت إلى مسامع ندى شهقة، تلتها أخرى، ثم صوت حشرجة غريب.

لم تستطع ندى مقاومة فضولها فهرعت إلى الشقة. تضاعفت الرائحة البشعة كأنما استحالت وحشًا ابتلع كل ذرة هواء بالمكان. وجدت الحارس راكعًا على ركبتيه يتقيَّأ، وعاصم يسد بقامته الفارعة ومنكبيه العريضين الحائط الذي بدا من خلفه مفرَّغًا. انتبه عاصم لدخول ندى فحاول إثناءها عن التقدم في محاولة.. جاءت متأخرة.

لمحت ندى ما في فجوة الجدار فانتابتها نوبة من التقيؤ هي الأخرى. تخاذلت قدماها عن حملها فتهاوى جسدها أرضًا وافترش في بؤس.. محتويات معدتها اللزجة.

***

-23-

اللغز خلف الجدار

هل كانت عبارة شيرين الضاحكة نبوءة؟

خلف الجدار المختلق، كانت ترقد.. جثة!

جثة منتفخة قطعت شوطًا لا بأس به من التحلل. عينان متآكلتان ظهرت مكانهما فجوتان مخيفتان، أجزاء متفسخة من الجلد بدأت بالانفصال تاركة العظام عارية في تلك المواضع. الكثير من العفن الأخضر غطى باقي الأعضاء تتغذى عليه مئات الحشرات الدقيقة في مشهد تقشعر له الأبدان.

***

استفاقت ندى بعد قليل على رائحة نفاذة اقتحمت أنفها وهاجمت وعيها.

وجدت نفسها مستلقية على الأريكة وبجوارها سيدة غريبة تضع على أنفها بصلة مهشمة، وأخرى تمسح جبهتها وصدغيها بعطر ذي رائحة ثقيلة. رفعت رأسها فرأت عاصم واقفًا وسط عدة رجال يدلي لهم بأوامره، منهم مَن يرتدي زي الشرطة وآخرين باللباس المدني، بينما وقف الحارس

بجوار الباب ذاهلًا يرتجف وقد تهدل شاربه الضخم وانكمشت قامته.

لاحظ عاصم أنها استفاقت فاقترب منها لتبتعد المرأتان لا إراديًا لإفساح المجال له. استند على ركبته بجوارها يسألها في قلق:

- هل أنتِ بخير؟

اعتدلت في جلستها وقد اعتراها الخجل بسبب انهيارها المفاجئ:

- أنا.. أفضل.

ثم تذكرت ما رأته فنظرت نحو الحائط في رعب ولكنها وجدت فجوته فارغة.

- لقد أخذ رجال المعمل الجنائي الجثة.

كلمة «جثة» جعلتها تشهق. ما رأته لم يكن كابوسًا! امتقع وجهها وهي تسأله في حذر:

- لمَن هي؟

- الفحص الأوَّلي أفاد بأنها لذكر ربما في بداية العقد الخامس من عمره، لم نحدد هويته بعد.

- هل.. هل مات؟ أم قُتل؟

- من المعاينة الظاهرية.. يبدو أنه قُتل..

- لماذا؟ ومَن فعلها؟

- لا نعلم بعد، سننتظر تقرير الطب الشرعي، وسنبحث في بلاغات المفقودين لعلنا نحدد هويته. لن نسبق الأحداث فالتحقيق سيأخذ مجراه.

ثم تنهد مردفًا:

- أخشى أن تحقيقكِ عن نجيَّة سيطول.

استيقظ حس ندى الصحفي إثر عبارته فنظرت حولها، ثم أخرجت هاتفها من حقيبتها لتصوير المكان. مد عاصم ذراعه أمامها قائلًا:

- لا يمكنكِ أخذ أي صور الآن، ممنوع!

نظرت إليه في استجداء، فأردف بصوتٍ خافت:

- سيتسبب ذلك في إيذائي.

توسلت إليه:

- اسمح لي بالتقاطها والاحتفاظ بها. لن أنشرها حتى تأذن لي.

تردد.. اتسعت حدقتا عينيها المشمشيتين البريئتين..

- أرجوك.. إنه سبق لا يمكن تعويضه.

خفض عينيه وأومأ لها برأسه مستغربًا استسلامه. راقبها وهي تتحرك بخفة وتلتقط الصور من زوايا مختلفة. أدهشته قدرتها على ممارسة عملها بنشاط وحماس بعد دقائق من إغمائها بسبب الفاجعة، خامره حدس بأن معدنها أقوى بكثير ممّا يشي به مظهرها الوديع. رمقه مساعدوه في استغراب، بعد أن منع الجميع من التصوير حتى إنه أوقف أحد العساكر بالباب مصادرًا هواتف الداخلين، ولا يسلمهم إياها إلا بعد خروجهم.

رنَّ هاتف عاصم وأضاءت شاشته باسم خطيبته، فكر في أن يتجاهل المكالمة، ثم عدل عن ذلك مغلبًا صوت العقل. انساب صوتها الحاد عبر الهاتف لتقول له في دلال:

- حبيبي، أنا في انتظارك، لا تتأخر.

ضرب جبهته بكفه.. اليوم عيد ميلادها، وقد وعدها بعشاء مميز يلتقطان فيه الأنفاس بعد تباعد طال، ويتفقان فيه على الخطوة القادمة في علاقتهما.

نظر حوله.. ندى المنهمكة في التقاط الصور.. رجال المعمل الجنائي المنشغلون بفحص المكان وجمع كل ما له دلالة في

أكياس بلاستيكية مميزة. فجوة الجدار المخيفة التي بدت كفم وحش أسطوري كريه الرائحة يتحداهم في برود.

كان هذا مكانه الذي لا يود أن يفارقه إلا بعد خروج آخر فرد من الموجودين، إلا أنه لا يمكنه الفكاك من ميهان هذه المرة وإلا سيكون ذلك إيذانًا بانهيار العلاقة المتماسكة بصعوبة. استسلم لقدره، فبدأ في فرد ثنيات كُمَّي قميصه وإعطاء التعليمات الأخيرة للعاملين من حوله ثم استأذن من ندى ببضع كلمات وانطلق مسرعًا إلى شقته ليستحم ويرتدي الملابس المناسبة للأمسية.

اختار الحلة الحريرية التي أوصته ميهان بشرائها، ووضع العطر الفاخر الذي انتقته هي، وارتدى ساعة اليد الثمينة التي كانت أولى هداياها له، ونظر لنفسه في المرآة واطمأن..

هذا مظهر ترضى عنه ميهان، ويليق بها..

ميهان، خطيبته الجميلة، شديدة الجاذبية، ابنة السفير السابق وحفيدة السفير الأسبق، وكل ما يخصها راقٍ وأنيق. ميهان التي تراها والدته الشريكة المثالية وجواز سفره نحو مستقبل باهر. ويرى فيها والده اللواء المتقاعد ابنة صديقه الصدوق وبهجة للناظرين، ويراها هو...

قطعت رنة هاتفه حبل أفكاره، كان مساعده يسأل عن

بعض الإجراءات، ظل على الهاتف معه في طريقه إلى ميهان يعطيه التوجيهات. توقف أمام فيلا أسرة ميهان وأطلق نفير سيارته المميز كي يبلغها بوصوله، يعلم أنها تكره ذلك وتعتبره سلوكًا غير حضاري، ولكنه لم يتمكن من قطع مكالمته للاتصال بها.

لحظات مرَّت قبل أن تظهر جنية البحور الساحرة.. تذكر على الفور كيف ولماذا وقع في هواها من النظرة الأولى.

تهادت جميلته نحوه بثوب طويل تمازجت فيه درجات الأزرق والفيروزي كدوامة بحرية آسرة، التصق الثوب بجسدها من أعلى يكشف القليل ويثير الخيال نحو الكثير. ثم اتسع من بعد خصرها نزولًا إلى أسفل فأبرز تناسق جسدها الطويل الممشوق. وانهمر شعرها الحريري الأسود في شلال متموج على ظهرها وتداخلت خصلاته مع شعيرات الفرو الناعم الذي غطت به كتفيها في أناقة. لوحة بديعة من الكمال أدارت رأسه حتى إنه تلعثم في ردِّه على مساعده.

وصلت إليه، لاحظت انشغاله بهاتفه فعبست.. ووقفت جوار باب السيارة تنتظر. فهم عاصم مرادها فأنهى مكالمته دون استئذان ونزل مسرعًا ليفتح لها الباب. دلفت بإباء أميرة فانتشر عطرها وأحال السيارة إلى حديقة غنَّاء عابقة بروائح الياسمين ومسك الليل وزهر البرتقال. رنا إليها عاصم بأنفاس

مشدوهة، وبدأت ليلتهما معا..

***

-24-

ليلة مثالية

وصل عاصم مع خطيبته إلى مطعمها المفضل في الدور الأخير لأحد فنادق السبع نجوم الشهيرة المطلة على النيل. دلفا إلى قاعة المطعم معًا، فالتفتت الرءوس وتلوت الرقاب لمتابعة الجمال الفتَّان الذي تعلق بذراعه.

وشعر هو بالزهو..

الارتباط بفتاة يدير جمالها الرءوس يولد لدى المرء شعورًا لذيذًا بأن لديه شيئًا خاصًّا يحسده عليه الآخرون.

إحساس من التفوق والقوة.. أحبه عاصم وانتشى به.

بل واعترف لنفسه بأن أسعد لحظاته مع ميهان كانت تلك التي يجتمعان فيها معًا وسط الآخرين، تحيط بهما العيون وتتلوى من أجل مراقبتهما الرقاب.

أجلسهما المضيف على منضدة خاصة وأوقد لهما الشمعة التي تتوسطها باحتراف. وعلى أنغام البيانو الساحرة يصاحبها صوت المغنية الرخيم، تأمل عاصم وجه خطيبته الذي انعكس عليه لهيب الشمعة فزاده فتنة ووهجًا، بعينيها نصف المغلقتين، وشفتيها نصف المفتوحتين، واللتين تعدان

بالكثير..

***

انتبه لنقرات أصابعها على المنضدة فوجد ابتسامتها قد بدأت تفتر بانتظار أن يتكلم. كان يعلم سبب وجوده، فبخلاف الاحتفال بعيد ميلادها، تتوقع منه تحديد موعد للزفاف الذي تأجّل مرتين بسبب حالات وفاة في العائلتين. لاحظت هي شروده، فسألته في دلال:

- ما الذي يشغلك عني؟

كانت تتوقع ردًا على غرار: «لا يوجد ما يمكن أن يشغلني عنكِ جميلتي»، ولكنه خيَّب ظنها فأجاب عن سؤالها باستفاضة.. حكى لها عن القضية الجارية، وعن نجيَّة والجثة الجديدة و.. ندى.

ظلت صامتة تستمع له وقد خفتت ابتسامتها وضاقت عيناها، انتهى من كلامه وبدأ يريها الصور من على هاتفه، عقَّبت قائلة بتهكم:

- يا لك من ساذج! لن تطلع الشمس قبل أن تجد تلك الصور طريقها للنشر.

نفرت عروق جبهته وتملكه الغضب. لم يدرِ ما الذي أزعجه

أكثر، تهكمها ونعتها له بالساذج، أم سوء ظنها في ندى الرقيقة التي لا تعرفها. همَّ بالرد عليها، ثم ابتلع كلماته مؤثرًا السلامة، فهو يعلم أن أي رد غير محسوب قد يكون المسمار الأخير في نعش علاقتهما. أخرج علبة سجائره وخرج مسرعًا دون أن يستأذن منها برغم علمه بأن ذلك التصرف سيغيظها. ظل بالخارج قرابة عشر دقائق ينفث دخان سيجارة تلو الأخرى حتى استعاد هدوءه.

عاد أدراجه لينضم إليها متوقعًا وصلة من النكد المحتوم، ولكنها فاجأته بابتسامتها الخلابة!

تنفس الصعداء وهو يقول لنفسه إن مرور العاصفة على خير هو ولا ريب معجزة استنزلتها بركة دعاء الوالدين.

تناولا الطعام المطهو باحتراف، واتفقا على موعد للزفاف بعد شهر، ثم ختما ليلتهما برقصة حالمة انسابا فيها معًا على أنغام الكمان والعازف يدور حولهما، ومعه تدور أعين الحاسدين من الرجال والنساء على حد سواء.

***

في الصباح.. استيقظ عاصم على أزيز مُلِح من هاتفه بعد أن ضبطه على وضع الصامت كي يحظى ببضع ساعات من النوم. بعين مغلقة وأخرى فتحها بصعوبة ميَّز في جهة

الاتصال اسم اللواء عبد القادر. اتسعت عيناه وضغط زر الرد في وجل، جاءه صراخ رئيسه الهادر:

- ما هذا الذي نشرته جريدة الحبر الحر؟ أنت موقوف عن العمل يا سيادة المقدم ومحوَّل للتحقيق.

***

-25-

هناك في المنيا

أوقفت غالية الكرسي المتحرك الذي تجلس عليه والدتها في مكانها المفضل بجوار النافذة المفتوحة لتتنسم منها الهواء النقي الآتي من النيل الممتد أمامها. فردت لها الغطاء الصوفي الخفيف على فخذيها كما تحب ووضعت لها كوب الشاي الساخن في يدها قبل أن تسألها في خفوت:

- ماذا تظنين حصل لأمير؟

تجعد وجه الأم قرفًا من السيرة ولكن ابنتها أصرت على الحصول منها على إجابة فسألتها:

- هل قتلته نجيَّة؟

- مجنونة تقتل فاشلًا.

- أمير لم يكن فاشلًا، كان يعمل باجتهاد، لكن الحظ عانده.

ارتعشت أرنبة أنف الأم وهي تقول بحدة:

- يا خائبة الرجا، ترككِ وتدافعين عنه؟

- لو لم يحدث له ما حدث لربما كنَّا متزوجين الآن.

رمقتها والدتها بنظرة حادة قبل أن تقول:

- دعيني صامتة أفضل.

صمتت غالية للحظة ثم عادت تسألها:

- ولكن لماذا ستقتله نجيَّة؟

- ألم يقولوا إنها قتلت قردًا وعذبت القطط؟ منذ متى نسأل المجانين عن أفعالهم؟

- نجيَّة ليست مجنونة، ولم تكن لتُعذب الحيوانات، أغلب الظن أن تلك القطط ماتت من الإهمال أو الجوع. نجيَّة تُعاني من مرض نفسي مزمن، تتدهور حالتها عند إيقاف العلاج.

- مجنونة، وقد فضحتها عيناها منذ زمن ولكنكم لا تبصرون.

اختلست غالية نظرة نحو عينَي أمها شبه المغلقتين واللتين انحسر عنهما الضوء منذ سنوات وشعرت بالمفارقة مع عبارتها الأخيرة ولكنها لم تعقب على كلامها، فأمها عنيدة وقد يتطور الحوار إلى ما لا تُحمد عقباه.

وهي.. هي متعبة.. منذ أن تلقت تلك المكالمة الهاتفية المشؤومة التي طلبوا منها فيها السفر للقاهرة للتعرف على جثة أمير. الآن.. بعد أن قبلت موته منذ ما يزيد على العام

ودفنت مأساتها، طلبوها كي يجددوا حزنها على حبيب عمرها.

كان بإمكانها الرفض، التعلل بصعوبة ترك والدتها القعيدة الكفيفة.. ولكنها وافقت!

هل لرؤيته ووداعه للمرة الأخيرة؟ أم للهروب من براثن والدتها ولو قليلًا.. أيًا كان السبب، فقد ندمت على قرارها بمجرد نزولها من القطار في محطة مصر. أخذت رهبتها تتزايد كلما اقتربت من وجهتها.

منذ أن عزمت على السفر وطنت نفسها على بشاعة الموقف، مستحضرة في ذهنها كل ما رأته في الأفلام من مشاهد تعرُّف الناس على جثث ذويهم في ثلاجة المشرحة. لحظة رفع الملاءة عن وجه الفقيد، والنظرة السريعة للتعرف عليه، ثم الإشاحة بالوجه، وعودة الملاءة لمثواها.

ولكن.. معايشة الأمر كانت مختلفة.. قاسية.. منهكة.. قاضية.

رائحة «الفورمالين» التي ملأت المكان وتشبثت بأنفها وملابسها فجعلت عصارة معدتها ترتفع إلى حلقها. البرودة الشديدة التي زادت أوصالها المرتجفة ارتجافًا.. ثم لحظة رفع الملاءة..

النظرة السريعة التي استرقتها ثم لم تنجح في صرفها حتى اللحظة الراهنة.

لم تكن تتصور في أبشع كوابيسها أن ترى أمير، الذي كان دومًا ممتلئًا بالحياة، جثة هامدة! ليست هامدة فحسب، بل متحللة ومتفسخة بلا معالم..

بحثت بعينيها عن الوشم، وجدته في مكانه، أعلى الذراع، أجزاء منه مموهة، وأخرى بقيت على حالها، بنفس الدقة والتفاصيل المميزة التي حفظتها عن ظهر قلب.

هل كان له أن يتخيل أن وشم العقرب الذي جعل الفتيات تتهافت عليه وتعتبره رمزًا للخشونة والجرأة، هو ما تبقى منه الآن!

أعادوا الملاءة على جسده، وابتعدت هي.. تبتلع دموعها وأشلاء قلبها.

عادت من القاهرة وكأنما ازدادت أعوامًا على عمرها.

طويلة هي الحياة..

طالت أكثر ممّا تحتمل، بعد أن فقدت حلاوتها منذ زمن. خبر مقتل أمير في ليبيا، ثم سفر غالب إلى أوروبا، وطباع أمها التي ازدادت تعنتًا وخشونة منذ أن فقدت بصرها

وقوتها، وأخيرًا نجيَّة ابنة خالها التي زجوا بها في السرايا الصفراء.

هكذا، وببساطة.. لم يعُد لها أحد.

نجيَّة لم تكن مجنونة تمامًا كما تزعم أمها، ربما كانت لها بعض التصرفات الغبية والكثير من الأفعال الخرقاء التي خلفت خسائر متكررة. ولكن الأمر لم يكن يتجاوز ذلك. كانت تحن على القطط والكلاب الضالة في الشارع وتعطي لهم من شطائرها خلسة. لم تكونا صديقتين بسبب بقاء غالية في المنيا بينما عاشت نجيَّة في القاهرة مع ذويها، ولكن في الإجازات والأعياد، كانتا تلتقيان. صحيح أن والدتها كانت تكره زوجة أخيها غريزيًّا متهمة إياها بأنها امرأة نكدة ومسيطرة، سودت عيشة أخيها وحولته إلى شخص صامت وكئيب بعدما كان فاكهة العائلة. وانتقل هذا الكره تلقائيًّا لغالية، لكنها لم تكره نجيَّة. لم تزل تذكر لعبهم هم الأربعة سويًّا في الشارع والغيطان. والمقالب المضحكة التي كان يتفنن فيها أمير فيُضحكهم ويسليهم بها. والبرتقال الذي كان يجمعه من الغيط ويختصها به.

آه أمير.. لا تصدق أنه مات حقًّا!

حينما قالوا إنه قُتل في ليبيا حاولت أن تعمل بنصيحة والدتها وتنساه. بيد أن جزءًا دفينًا في قلبها ظل يُكن له

الحب. رحلاتهما النيلية وكلمات الوله التي كان يسكبها في قلبها لا تزال حية تتردد بصوته الدافئ في أذنيها كل مساء.

لولا جبروت أمها!

انتقلت بأفكارها إلى الحاضر.. ترى أين اختفى أمير طيلة هذه السنة؟ هل كان مختطفًا في ليبيا ولم يتحرر إلا الآن؟ ولماذا لم يُعلن عن وجوده؟ هل كان ذلك هربًا منهم؟ وما الذي دفعه لزيارة نجيَّة؟ وما الذي حدث هناك؟ شجار عنيف أودى بحياته؟ أمير كان قوي البنية، فهل كان من الممكن أن تتغلب عليه نجيَّة بجنونها المزعوم؟ هل فقد قوته وتغير شكله في فترة الأسر فلم تتعرف عليه نجيَّة؟ جفلت وقتلته ظانة أنه غريب؟

الضابط الذي أبلغها بالخبر قال لها إنهم وجدوا جثته في الخزانة الخشبية الموجودة في حائط صالة بيت العباسية.. تذكر تلك الخزانة جيدًا، مكان اختبائها المفضل حينما كانوا يلعبون «الاستغماية» سويًا وهم أطفال. أخبرها الضابط بأن الخزانة كانت مغلقة وتم طلاؤها لإخفاء معالمها وخبيئتها. مَن الذي طلاها إذن؟ أهو عم حامد؟ بسبب الحكاية القديمة؟

سألها الضابط عن شكوكها فصمتت. الآن هي غير متأكدة إن كانت تصرفت بشكل صحيح! هل كان يجب عليها أن

تتكلم؟ الأمر تمت تسويته منذ زمن برضا كل الأطراف وأصبح طي النسيان.

إلا هي.. لم تنسَ.. وكيف لامرأة أن تنسى المرة الأولى التي كُسر فيها قلبها!

مَن الذي قتل أمير إذن؟

إن لم يكن عم حامد قد فعلها بسبب الأمر القديم، هل فعلها نظير المال؟ مَن حرَّضه؟ عم حامد لا يأخذ أوامره سوى من غالب. هل لغالب يد فيما حدث لأمير؟ ولكن لماذا؟ وكيف؟ وهو مسافر في بلاد بعيدة.

ضيقت غالية عينيها وهي تحاول تذكر تاريخ سفر غالب. هل يتزامن مع الوقت الذي قُتل فيه أمير؟ وهل يستطيع أخوها أن يقتل؟ كان صارمًا طوال عمره لا يهتم سوى بالعمل والمصلحة. ما هي المصلحة التي تجعله يقتل ابن خاله ثم يدفن جثته في الحائط؟

جفلت غالية من المنحى الذي اتخذته أفكارها..

كيف لها أن تشك في أخيها الأكبر!

لو علمت أمها بشكوكها لقتلتها كي لا تفتح فمها بكلمة، ثم لسلخت جلدها في بطء.

إلا غالب.

هكذا كان الأمر منذ نعومة أظافرهما.. وسيظل.

إلا غالب!

***

-26-

الساذج

اعتدل عاصم في فراشه محاولًا استيعاب ما سمعه من رئيسه. اشتعل الغضب في جوفه وهو يدرك التفسير الوحيد لما حدث.. لقد فعلتها ندى!

لا يصدق أنه وثق بها ووقع في فخها كغر ساذج. هو.. الذي يحفظ ألاعيب الصحفيين عن ظهر قلب ويحذِّر منها المستجدين في العمل والقدامى على حد سواء.

تلك الفتاة ذات العينين المشمشيتين استغفلته واستغلت لطفه أبشع استغلال بل وعرَّضت مستقبله المهني كله للخطر دون أن يطرف لها جفن.

أنَّى لها بذلك الجبروت؟ كيف تمكنت من إخفائه عنه؟ بل كيف قبل هو ذلك على نفسه؟ وأي سحر ألقته عليه كي يتخلى عن حذره الذي يلازمه كظله. كيف انصاع لما طلبته بهذا الانقياد الأعمى؟!

لقد كان بالفعل ساذجًا كما وصفته ميهان.. ليته صدقها.

تأجج الغضب بداخله وهو يتخيل ظهوره بمظهر الفاشل والمستهتر أمام رؤسائه؟ ثم ماذا سيقول أبوه حينما يعلم،

وأبو ميهان، وزملاؤه، بل ومرؤوسوه!

اشتعل الغضب أكثر فأكثر حتى التهم الباقي من عقله. لم يجد بدًّا من الاتصال بندى، ردت عليه بصوتٍ ناعسٍ فصبَّ عليها جام غضبه وفرّغ فيها كل استيائه ومخاوفه من الغد التي عصفت بذهنه. استخدم أقسى الكلمات وأكثرها جرحًا انتقامًا لجرحه هو، صارخًا فيها بنبرة تخيف أعتى الجبابرة.

أما الفتاة، فلم تنبس ببنت شفة.

هل سمع بكاءً؟ أنهى المكالمة وأغلق هاتفه ورماه، وارتمى على فراشه لاهثًا وكأنه انتهى لتوه من عراك بدني عنيف.

***

تفاجأت شيرين برنة هاتفها وهي في غرفتها بالفندق في عاصمة الضباب تُعد حقيبتها لرحلتها الوشيكة. ندى هي المتصلة، نغزت قلبها نغزة مفاجئة، لم تعتد أختها الاتصال بها أبدًا على هاتفها أثناء سفرها، التواصل بينهما يتم عن طريق الرسائل النصية والصوتية على برامج المحادثة. ردت من فورها:

- ماما بخير؟

جاء صوت ندى مكتومًا:

- ماما بخير يا شيرين لا تقلقي، إنها أنا.

ثم انهارت في البكاء..

***

نجحت شيرين بعد عناء في تهدئة أختها كي تخبرها بسبب انهيارها. حكت لها ندى عن الجثة التي ظهرت في شقة نجيَّة وعن الصور التي سمح لها عاصم بالتقاطها بعد أن رفض أن يسمح بذلك لأيٍّ من المتواجدين بمسرح الجريمة. عادت ندى للنهنهة وهي تُخبر أختها عن مكالمة عاصم المخيفة التي استقبلتها في الصباح الباكر. لم تفهم من اتهاماته شيئًا غير أنه ذكر في معرض كلامه المهين عدد اليوم من الجريدة. بعد أن أنهى المكالمة كفكفت دموعها واستجمعت أفكارها وتفقدت موقع الجريدة الإلكتروني لتُفاجأ بصور شقة نجيَّة، والجدار المجوف والجثة. تصدرت الصور الصفحة الأولى من الجريدة محققة بذلك سبقًا صحفيًا ربما هو الأكبر والأهم في تاريخ الجريدة.

- أنتِ لم تفعلي ذلك بالتأكيد؟

تساءلت شيرين مرتابة تتأرجح بين ثقتها العمياء بنزاهة أختها، وبين تأكيد ندى باستحالة وصول تلك الصور إلى الجريدة من خلال أي مصدر آخر.

- لم أكن لأفعلها.. تعرفين.

- أعرف.

صمتت شيرين متفكرة ثم سألتها:

- هل سألتِ في الجريدة عن المصدر؟

أجابتها ندى بأنها اتصلت بالجريدة فأخرسها صوت خالها المبتهج ممتدحًا إيَّاها على سبقها الصحفي العظيم الذي سينقلها لمصاف الصحفيين الأوائل. بهتت ندى من كلمات خالها حتى شكت في نفسها. طلبت منه أن يُخبرها بالتفاصيل، فأجابها مشدوهًا:

- ألم تكوني أنتِ مَن أرسل الصور لطارق؟

- هل أخبرك هو بذلك؟

- لا لا، طارق، خذ كلم ندى.

- آلو، ندى؟

انقبضت أمعاؤها.

- طارق من أين جئت بالصور؟

- ألم ترسليها أنتِ على بريد الجريدة الإلكتروني مساء أمس؟

- لا، هل كانت مرسلة من بريدي؟

- لم أنتبه لاسم المُرسل فالعنوان كان «صور الجثة الجديدة»، فتحته على الفور. ألم تكُن أنت؟ مَن فعلها إذن؟

«مَن فعلها؟»

ظل السؤال معلقًا لدى كل من طارق والأستاذ مجدي وشيرين وندى!

***

-27-

لعله خير

لم تستسلم شيرين. راجعت مع ندى تحركاتها بدقة منذ خرجت من شقة نجيَّة، محاولة الوصول للشخص الذي أرسل الصور من هاتفها.

نفت ندى كل تلك الاحتمالات قائلة:

- لم أترك هاتفي مع أحد. لقد عُدت إلى المنزل، جلست مع ماما قليلًا ثم نمت مبكرًا.

تفكرت شيرين للحظة ثم قالت بصوتٍ يغلب عليه عدم الاقتناع:

- ربما اخترق شخص ما هاتفك عن طريق أحد برامج التجسس لكي يسرق ما تصلين له أولًا بأول ثم ينسب ذلك لنفسه.

- تتكلمين وكأنني صحفية مشهورة يسرقون مني الصور والمقالات. شيرين أنا صحفية تحت التمرين، أي نكرة.. ثم إنه لم ينسب أحد لنفسه أي شيء، إن كان الأمر كذلك لساوم المخترق الجريدة على تلك الصور، أو بالأحرى لكان اختار جريدة شهيرة تدفع له أكثر.

عند تلك النقطة بدأت ندى تهدأ وتحاور بالمنطق. كان هذا هو هدف شيرين من الحديث، أن تسحب التحكم من عقل أختها العاطفي المنهار وتنقله لعقلها الواعي.

- رحلتي على وشك الإقلاع، مسألة ساعات ونجتمع على الفراش لنتباحث الأمر، سنجد الفاعل، لا تقلقي.

أنهت ندى المكالمة وقد بثت عبارة شيرين الأخيرة في نفسها القليل من الطمأنينة. حاولت أن تنفض عنها الحزن بيد أن عبارات عاصم القاسية لم تنفك تتردد في مخيلتها مرارًا وتكرارًا.

وجدت مكالمة فائتة من خالها مجدي وردتها أثناء حديثها مع شيرين. اتصلت به لتُفاجأ بعاصفة أخرى:

- كيف فعلتِ ذلك بنا يا ندى؟

- ...

- عرضتينا جميعًا للخطر بفعلتك، سيُصادرون أعداد الجريدة ويقاضوننا وربما نغلق للأبد.

أجابته ندى مبهوتة:

- لم أفعل شيئًا.

لم يبدُ عليه أنه سمعها إذ استمر يكيل لها الاتهامات بأنها تعمَّدت إرسال الصور من بريد إلكتروني غير معروف كي تُخلي مسئوليتها إن ساءت الأمور. كان يشعر بالغبن. حاولت ندى نفي اتهاماته إلا أنه سألها مباشرة عمَّن كان موجودًا في مسرح الجريمة غيرها سيهتم بإرسال الصور إلى جريدة «الحبر الحر» دونًا عن أي جريدة أخرى. بهتت ندى لسؤاله ولم تجد ردًّا فأنهى المكالمة غاضبًا.

انهارت ندى على فراشها من جديد، غير مصدقة كيف تهاوت الأمور فوق رأسها بهذه السرعة والقسوة ومن كل الجهات، وكأن الكون تآمر عليها!

سمعت والدتها بكاءها فطرقت باب غرفتها ثم دخلت دونما تنتظر ردها. رأت دموعها المنهمرة فاحتضنتها. حضن طويل كفيل بأن يمتص كل تعب الحياة المتكالب على عاتقها.

- ما بكِ حبيبتي؟

لم تكن ندى تحب إزعاج والدتها بتفاصيل عملها، ولكنها وجدت نفسها تحكي كل شيء بالتفصيل. انتظرت والدتها حتى انتهت، ثم أجابتها بعبارتها الأثيرة:

- لعله خير يا بنتي.

استفزتها العبارة وتذكرت لِمَ لا تحب الحكي لوالدتها:

- خير من أين يا ماما؟ لا توجد زاوية واحدة محتملة للخير!

- المواقف الصعبة تمحص الناس وتظهر لنا حقيقتهم، وهو أمر لو تعلمين عظيم. ثم يتكفل الله بحل كل شيء.

ظهر السخط على ملامح ندى فربتت أمها كتفها بحنان ثم خرجت. زفرت ندى لنفسها متسائلة:

- كيف سيُحل أي شيء والأمور كلها قد تعقدت على نحو مخيف!

***

بعد لحظة، عادت الأم وقد بدا عليها التردد، أخبرت ندى على استحياء أن خالها مجدي قد مر عليهم بالأمس بينما كانت ندى نائمة، وأنه سأل والدتها عن الساعة كي يضبط ساعته فأعطته هاتف ندى وتركته لإعداد الشاي.

- خالي مجدي؟ مستحيل..

***

أخذ عاصم يذرع حجرته تتخاطفه الأفكار السوداء عن مستقبله الذي دُمِّر بفعلة غير محسوبة لفتاة تافهة تظن نفسها صحفية.

رنَّ الهاتف وظهر اسم والده، بالطبع وصله التقرير، فاللواء عبد القادر من أصدقائه المقربين.

وصلة من التبكيت غير المحتمل صبَّها عليه والده، تبعها تذكيره بكل أخطائه السابقة منذ الابتدائية، وكيف قام الأب بإقالته من عثراته مرة تلو الأخرى. مكالمة بائسة كاد عاصم أن ينهيها دون سابق إنذار لولا أن أتت بخبر سعيد:

- لقد أقنعت اللواء عبد القادر أن يمنحك فرصة لتصحيح الأمر وحل القضية. ابتعد عن تلك الصحفية اللعينة وانتبه لعملك. لا يأتي من وراء الصحفيين أي خير. ظننتك تعرف.

- صحفية؟

- ميهان أخبرتني كي أنقذك من الورطة التي أوقعت نفسك فيها..خسارة فيك حبها والله.

***

ظلت ندى فريسة للقلق والوساوس حتى عادت شيرين من السفر فأخبرتها من فورها بزيارة خالهما وهاتفها الذي طلبه. تعجبت شيرين، وتساءلت هل من المعقول أن يسرق خالها الصور ثم يقوم بتلك التمثيلية لكيلا يقع بشخصه في مشاكل مع السلطات!

- ألم يكن هاتفكِ محميًّا بكلمة سر؟

- بلى.

- كيف سيفتحه خالك؟ بالتأكيد مصادفة.

صمتت ندى حائرة. أخذت شيرين هاتفها وتفحصته بعد بحث سريع على «الإنترنت» حول الاختراق الإلكتروني، فلم تجد أي دلالة على أن الهاتف مخترق. فتحت الصور وبدأت تشاهدها واحدة تلو الأخرى وهي تقول لندى:

- أمر الجثة الجديدة هذا محير بحق. أتعلمين؟ كان يتعين علينا الآن أن ننشغل بدراسة الأدلة والبحث عن الجاني في القضية الحقيقية، لا الانشغال بقضية الصور.

قالتها شيرين ثم التفتت إلى ندى تسألها:

- أين صور الجثة؟

- لقد فقدت وعيي بمجرد رؤيتها وحينما أفقت كانوا نقلوها.

- لم تلتقطي لها أي صور؟

- لا..

قفزت شيرين من على الفراش هاتفة:

- هذا يقلب المعادلة تمامًا، كيف لم تنتبهي؟

***

-28-

Queen.M.M95

أنهى المقدم عاصم قهوته الصباحية في لحظة رضا نادرة غير مصدق أنه عاد إلى مكتبه وأوراق قضيته. هَمَّ بفتح ملف قضية جثة شقة العباسية حينما فوجئ بباب مكتبه يُفتح عنوة وأمين الشرطة يحاول الحيلولة دون دخول أحدهم هاتفًا:

- ممنوع يا آنسة. ممنوع..

وجد عاصم أمامه فتاة طويلة رشيقة القد تتراقص خصلات شعرها الناري حول وجهها وتشتعل عيناها المشمشيتان بغضب متفجر.

عيناها.. يعرفهما!

أشارت الفتاة نحو العلامة الخشبية الموضوعة على مكتبه والتي تحمل اسمه قائلة:

- المقدم عاصم أليس كذلك؟ أنا شيرين.

ثم أردفت موضحة:

- أخت ندى.

تجدد غضب عاصم وشعوره بالخديعة إثر سماع اسمها فهبَّ من على كرسيه صارخًا:

- كيف تقتحمين مكتبي بهذا الشكل؟ ألا يكفي ما فعلته أختك؟

أخرجت شيرين من حقيبتها عدد جريدة «الحبر الحر» وفردته بحدة على طاولة المكتب أمامه قائلة في تحدٍّ:

- ندى لم تلتقط تلك الصور يا سيادة المقدم.

ثم أضافت متهكمة:

- اسأل نفسك مَن فعلها من أفراد طاقمك.

هدر عاصم:

- ما هذا الكلام الفارغ؟

جلست شيرين على المقعد أمامه دون دعوة. وضعت رجلًا فوق الأخرى ثم أشارت إلى صور الجريدة وطلبت منه في برود أن ينظر إلى صورة الجثة. أجابها في نفاد صبر بأنه يحفظ الجثة وتفاصيلها عن ظهر قلب، فسألته:

- ألم تُفق ندى من إغمائها بعد نقل الجثة؟

فهم عاصم على الفور ما ترمي إليه فجلس على كرسيه

ببطءٍ متمتمًا:

- هذا صحيح، ولكن.. لعلها استيقظت قبل أن ألحظ و..

بتر عبارته غير مقتنع بما يقول، فعاجلته شيرين قائلة:

- انظر إلى منظور الصورة، لقد التقطها شخص طويل القامة.

ثم نظرت إليه من أسفل لأعلى وهي تُكمل:

- في طولك مثلًا، وندى كما تعلم..

احتقن وجه عاصم. ابتسمت شيرين ابتسامة ذات مغزى ثم قامت عن المقعد واتجهت نحو الباب قبل أن تستدير إليه وترفع سبابتها في الهواء مردفة:

- ندى تستحق اعتذارًا، لقد جرحت مشاعرها.

قالتها وخرجت في هدوء تاركة عاصم نهبًا لأفكاره وشكوكه.. وندمه!

***

تأمل عاصم صور الجريدة للمرة الرابعة محاولًا استنتاج مَن الذي سرَّبها من طاقمه. أخذ يكتب في ورقة أسماء الذين سمح لهم بالتصوير أو الذين يمكن لهم الوصول للصور من

المعمل الجنائي. تأمل الأسماء، واحد منهم فقط يتوافق طوله مع منظور الصور، الملازم أول منصور عباس.

همَّ باستدعائه ثم قفزت في ذهنه فكرة أراد بشدة أن يصرفها، لولا ذكّتها عبارة الفتاة الصهباء الشرسة التي زارته منذ قليل: «في طولك مثلًا..»

فتح هاتفه ونظر في الصور التي التقطها بنفسه من مسرح الجريمة، صورة تلو الأخرى.

الصور كانت متطابقة!

***

تراجع طارق إلى الوراء تلقائيًا أمام الدخول الهادر للمقدم عاصم الذي اقتحم مقر الجريدة وقد نفرت عروق جبهته من الغضب. سأل دونما مقدمات:

- كيف وصلتكم الصور؟

تمالك طارق نفسه وأجاب بعناد:

- هل معك إذن باقتحام المكان أو الاطلاع على مستندات خاصة؟

أدرك عاصم أن أسلوبه الهجومي سيزيد الأمر تعقيدًا فكظم غضبه وحاول اصطناع الهدوء قائلًا:

- إذا ساعدتني في الوصول للشخص الذي سرَّب الصور سأحرص على أن يُحفظ المحضر ضد الجريدة وكأن شيئًا لم يكُن.

ظهر الأستاذ مجدي من ورائهما فرحب بعاصم ثم أدخله إلى مكتبه قائلًا في ودٍّ مبالغٍ فيه:

- نحن جميعًا تحت أمرك يا عاصم بيه، تفضل.

فتح له بريد الجريدة على شاشة حاسبه. نظرة واحدة من عاصم نحو عنوان البريد الإلكتروني الذي أُرسلت منه الصور جعلته يقفز عن الكرسي في غضب. اندلعت في رأسه ذكرى ما حدث دفعة واحدة.

ميهان محققة.. يا له من ساذج!

اندفع خارجًا من الجريدة والشرر يتطاير من عينيه دون أن ينبس ببنت شفة.

***

جلست شيرين على الفراش بجوار ندى وسألتها عن عنوان البريد الإلكتروني الذي أخبرها طارق بأنه أرسل الصور للجريدة، أجابتها ندى بأنه: Queen.M.M95.

- فتاة.. يبدأ اسمها بحرف الميم، من مواليد عام 1995،

وهناك احتمال أن تكون متكبرة.

هتفت ندى مدهوشة:

- عرفتِ كل هذا من عنوان بريد إلكتروني مبهم؟

- طبعًا، وحالًا سترين صورتها.

فتحت شيرين تطبيق «الفيسبوك» وأدخلت عنوان البريد الإلكتروني في خانة البحث به وبعد لحظات ظهرت صورة الفاعلة!

فتاة طويلة القامة رشيقة القد ذات شعر أسود فاحم وأهداب كثيفة وابتسامة «هوليوودية» متقنة الصنع.

- لم أرَها من قبل.

قالت ندى. أشارت شيرين نحو خانة الارتباط هاتفة في إثارة:

- انظري خطيبة مَن!

***

وقفت ميهان في البهو الفخم لمنزل أسرتها تبكي أمام عاصم الغاضب الذي خلع خاتم الخطبة ووضعه أمامها. لم يأبه لدموعها وأدار ظهره لها وهمَّ بالخروج، فمسحت دموعها

وهتفت به في شراسة:

- كيف تجرؤ؟ لم يُخلق مَن يدير ظهره لي أنا، ميهان المنزلاوي.

لم تنجح كلماتها في إيقافه فلحقت به وخرمشت ظهره بأظافرها الطويلة وهي تصرخ:

- لا تكن غبيًّا، لقد فعلت ذلك دفاعًا عن حبي لك.

فوجئ عاصم بوالد ميهان يدخل عليهما البهو وينقل نظراته بينهما في صرامة فأدرك أن معركته ستكون أكثر شراسة ممَّا توقع.

***

وضعت ندى هاتفها وتراقصت على شفتيها أخيرًا ابتسامة سعادة. قهقهت شيرين قائلة:

- بمكالمة واحدة مسح كل عباراته المسيئة؟ يا لكِ من طيبة.

ظهرت حمرة الخجل على وجه ندى فلم تجادلها شيرين، بل سألتها في فضول عن خطوتها القادمة. لمعت عينا ندى وقد ذكرها السؤال بقضيتها:

- سأستكمل التحقيق بالطبع، يجب أن أعلم جثة مَن التي

كانت مدفونة بالجدار، ومَن الذي فعلها.

- أعرف أنكِ متعاطفة مع نجيَّة، ولكن مَن غيرها سيفعل ذلك؟

عبست ندى وهي تقول في عناد:

- ألم تقرئي أوراقها؟ مثلها لا يمكن أن تقتل.

- لقد قتلت القرد بالفعل، ومن قبله العديد من القطط.

- نحن لا نعلم ذلك بالتأكيد، ربما ماتت الحيوانات من الإهمال أو الجوع مع حالة نجيَّة النفسية والعقلية المتدهورة.

اغتصبت شيرين ابتسامة باهتة وهي تقول:

- هذا أدعى للشك.. ربما أصابتها نوبة من الجنون أو ما شابه.

أجابتها ندى بعناد:

- هذا غير متوافق مع حالتها النفسية.

- فلنسأل الطبيب إذن.

- سأفعل، لقد عزمت على زيارة نجيَّة غدًا كي أتابع حالتها.

- لا يا حلوة، غدًا لديَّ رحلة، ستنتظرين حتى نذهب سويًّا.

- ولماذا ستأتين معي؟ ألم تطمئني أن المكان أمان.

أجابتها شيرين في غموض:

- لا بد أن الطبخة قد شارفت على النضج وبحاجة لمَن يقلبها قليلًا.

- طبخة!

- لا عليكِ، سنذهب سويًا، موعدنا بعد ثلاثة أيام.

قالتها شيرين ثم أرجعت رأسها للوراء وهي تبتسم.

***

-29-

خذني معك

جلست ندى في هدوء على الفراش بجوار نجيَّة التي بدت في حالة من الهدوء والصفاء. انعكست على وجهها أشعة الشمس الداخلة من بين قضبان النافذة فظهرت تجاعيد وجهها الدقيقة لتشي بسنوات المعاناة التي عاشتها.

سألتها نجيَّة:

- أين الآخرون؟ لا يزورني أحد غيرك..

- مَن تقصدين؟

- غالب.. وأمير.

تساءلت ندى في نفسها إن كانت نجيَّة تعلم بمقتل أخيها في ليبيا وتتناساه، أم لا تعلم! أجابتها بحذر:

- أمير في ليبيا.

- وغالب؟

- في دبي.

- أنتِ لا تعلمين شيئًا.

قالتها نجيّة بنبرة فيها استخفاف ثم ابتسمت وأرسلت بصرها نحو النافذة وشردت.

حاولت ندى التحاور مع نجيّة حول أفراد عائلتها، أبيها وأمها وجدها وأمير وغالب.. إلا أن نجيّة التزمت الصمت ولم تعُد تجيبها إلا بابتسامات متقطعة وكأنها مترفعة عن الانخراط في الحديث معها عن تلك الترهات. استسلمت ندى وانسحبت من الغرفة المبطنة مدركة أنها لم تصل لجديد، سوى أن إحساسها بالتعاطف مع نجيّة قد ازداد، وهي تشعر بها وحيدة ومنعزلة عن الجميع.

عادت ندى لشيرين التي استبقاها د. مراد لتناول الإفطار معه حينما مرّت الأختان عليه قبل أن تأتي ندى لنجيّة. استغربت ندى ترحيب شيرين باقتراح الإفطار وهي التي تناولت إفطارًا دسمًا في المنزل قبل خروجهما. عادت إليهما فوجدت شيرين جالسة بجوار الطبيب أمام شاشة حاسبه اللوحي، يشرح لها رسمًا بيانيًا ما، وهي منصتة وغاية في التركيز. مشهد مثير للفضول.. شيرين لم تكن مهتمة أبدًا بدراسة ندى أو الحالات التي باشرتها، بينما بدا عليها الآن الاهتمام الصادق، ود. مراد يتكلم في حماس وكأنه يكشف لها أسرار العالم بأسره.

ربما كان يفعل!

***

لم تُرِد ندى أن تقاطع انهماكهما الواضح، فانسحبت نحو كافتيريا المستشفى تحتسي كوبًا من القهوة. وجدت نفسها تتصل بعاصم. رحب عاصم بمكالمتها فسألته:

- هل من جديد بخصوص الجثة؟

- لقد تم التعرُّف عليها؟

دقَّ قلبها وهي تسأله:

- مَن؟

- أمير خلف عطا الله.

- أخو نجيَّة؟ ألم يُقتل في ليبيا؟

- كان مبلغ علمنا أنه قُتل في إحدى هجمات «داعش» على بعض المصريين هناك.

- ثم نَقَل أحدهم جثمانه من ليبيا إلى مصر وأخفاه في الخزانة؟

- تقرير الطب الشرعي الأوَّلي أفاد بأن الجثة حديثة، عمرها ما بين ثلاثة أسابيع لشهر على الأكثر. يبدو أن أمير قد قُتل منذ فترة وجيزة ولم يلقَ حتفه في ليبيا كما ظننا.

قفزت الجثة بتفاصيلها ورائحتها المثيرة للغثيان إلى مخيلة ندى فنفضتها عنها سريعًا وهي تسأله:

- ما هو سبب الوفاة؟

- ضربة قوية على الرأس بواسطة تمثال من الجرانيت. وُجدت شذرات منه في إصابة الجمجمة.

صمتت ندى.. ثم عقبت في خفوت:

- بذات الطريقة التي قُتل بها القرد.

- تمامًا؛ لذلك يؤسفني أن شكوكنا تتجه نحو نجيَّة، خاصة أنها تمتلك القوة البدنية لذلك.

شعرت ندى بغصة في حلقها وهي تتذكر تشخيص د. مراد الذي أصر عليه سابقًا: «نجيَّة قادرة على العنف والإيذاء»، فهل فعلتها حقًّا؟ سألت عاصم بعناد:

- لماذا تقتل أخاها الوحيد؟

- ربما انتابتها نوبة من جنون، أو لعله ذكَّرها بأحداث من طفولتها جعلتها تهتاج عليه، وربما خلط عقلها المريض بينه وبين غالب. دعينا لا نستبق الأحداث، ما زلنا في مرحلة التحقيقات.

- هل ستقوم باستدعاء أي أفراد من الأسرة للاستجواب؟

غالب مثلًا؟

- هذه خطوة سابقة لأوانها، من الصعب استدعاؤه من البرتغال للتحقيق دون معلومات واضحة.

- البرتغال أم دبي؟

- كان في دبي، ثم ترقى مؤخرًا إلى منصب كبير في فرع الشركة بالبرتغال وسافر إلى هناك بصحبة زوجته.

- إذن؟

- ربما أقوم بزيارة لبيت الأسرة في المنيا لتقديم واجب العزاء و.. الدردشة.

وجدت ندى نفسها تهتف:

- خذني معك.

- ماذا؟

- أرجوك.. تنقصني معلومات كثيرة عن نجيَّة، بدونها لن يكون لتقريري أي معنى.

أراد عاصم أن يرفض.

- لا بأس، سأخبركِ بالموعد.

اندهش من موافقته كالعادة فاستدرك قائلًا:

- هذا آخر طلب سأستجيب له بدعوى تعويضك.

ضحكت ندى ضحكة خفيفة أطربت قلب عاصم، ثم قالت:

- لن أستطيع أن أعدك.

انتهت المكالمة وعلى طرفيها شخصان يبتسمان في سعادة.. دون أن يعلما سببًا لذلك!

***

-30-

إلى المنيا

في الموعد المتفق عليه، التقت ندى بعاصم في محطة مصر. سلمت عليه، ولاحظت خاتم خطبته البلاتيني الذي لم يبارح إصبعه رغم مراهنة شيرين على ذلك بعد فعلة خطيبته. وكانت ندى قد علمت أنه كشفها بعد ما حكاه لها خالها عن اقتحام عاصم لمقر الجريدة والصدمة التي أصابته إثر تمييزه للبريد الإلكتروني الذي أرسل الصور لهم.

جلسا على كرسيين متقابلين بجوار النافذة وكان من حسن حظهما أن الأماكن المجاورة لهما ظلت شاغرة حتى تحرك القطار. لم تدرِ ندى سبب الغصة التي أصابتها، عزتها لتوتر السفر. لم تجد في نفسها القدرة على تبادل الحديث فأخفت رأسها وراء الستار البرتقالي الفاقع الذي انسدل على النافذة وأخذت تتأمل الطريق في صمت.

سرحت ندى مع حركة مرور أعمدة النور والسيارات السريعة من جوارها، ثم تباعدت الأشياء رويدًا رويدًا بالتزامن مع ظهور الخضار على استحياء قبل أن يفرض سيطرته ويملأ الأفق في زهاء. مزارع تلو مزارع تناثرت فيها بيوت صغيرة مبنية بالطوب الأحمر بلا طلاء، لم تنجح رغم

قبحها في تلطيخ جمال وصفاء الأخضر إلا قليلًا.

رن هاتفها وظهر عليه اسم عاصم، أخرجت رأسها من خلف الستار مدهوشة لتجده يقدم لها كوبًا ورقيًا به قهوة باللبن يتصاعد منها البخار وطبقًا من الفلين الأبيض به قطعة من الكعك المغلف. أرادت الاعتذار له ولكن معدتها كان لها رأي آخر بعد أن خرجت من بيتها مسرعة بلا إفطار. أخذت منه الكوب والطبق ولم تكد تمر دقائق حتى أجهزت عليهما، فابتسم وهو يقدم لها طبقه ولكنها شكرته في خجل وهي تمسح فمها بمنديل مبلل. همَّ عاصم بالكلام فانطلق أزيز هاتفه، انتهزت ندى الفرصة فتوارت مجددًا خلف الستار بينما زفر هو إذ طالع اسم ميهان يظهر على الشاشة.

استمر الصمت بينهما حتى وصلا إلى محطة المنيا فترجَّلا من القطار واستقلَّا سيارة أجرة أنزلتهما أمام بناية قديمة تطل على النيل. أمام شقة في الدور الثاني وقفت ندى جوار عاصم ينتظران. بعد برهة فتحت لهما الباب امرأة بيضاء كحيلة، لها قامة طويلة تميل للبدانة، غطت شعرها بشال ملون وترتدي جلبابًا منقوشًا. توقعت ندى أنها غالية، أخت غالب زوج نجيَّة، وقدرت أنها في أواخر عقدها الرابع. رحبت بهما غالية بفتور وقد ظهر اعتدادها بنفسها جليًا في نظرات عينيها وحركات جسدها. أدخلتهما إلى حيث تجلس والدتها

الضريرة، الحاجة زينب..

تباين ملحوظ ظهر بين الابنة الضخمة ذات العنفوان، وبين الأم الضئيلة التي انكمشت على كرسي متحرك جوار النافذة المفتوحة المطلة على النيل والتي ينساب منها النسيم العليل. بياض شعر السيدة الشاحب الذي طل من غطاء رأسها المثلث الصغير المربوط في عقدة أسفل ذقنها، وقياس جلبابها القطيفة الذي بدا أكبر من قياسها الحالي وشيا بحياة حافلة، بأسرار ربما..

سألت غالية ضيفيها عمّا يشربان فاعتذرا. أصرت الحاجة زينب أن تُعد لهما ابنتها الشاي فانصاعت. بدأ عاصم بالكلام:

- البقاء لله يا حاجة في وفاة ابن أخيك.

خرج صوت الحاجة زينب أجشًّا وبطيئًا كأنما يخرج من جُبٍّ عميق:

- حياتك الباقية يا ولدي، كنّا نظنه مات منذ أكثر من سنة وأخذنا فيه العزاء حينها. غريب أن تتلقى العزاء مرتين في نفس الشخص، لكن هذا هو أمير، لا تكفيه ميتة واحدة.

وضعت غالية صينية الشاي معقبة:

- هكذا هي أمي لا يعجبها من البشر أحد، سوى غالب

بالطبع.

ثم اغتصبت ضحكة وأردفت:

- أنتما تعلمان نساء الصعيد.

بدا الغضب على وجه الحاجة زينب ونهرت ابنتها قائلة:

- كفاكِ كلامًا ماسخًا يا فتاة. ألم يعدل جدكِ بين أحفاده ذكرانًا وإناثًا وقسَّم أرضه بينكم بالتساوي أنتم الأربعة في حياته؟!

ظهر طيف من الخجل على وجه غالية وهي تقول في مداعبة بدت فجَّة:

- يبدو أنه لم يكُن راضيًا سوى عن غالب، وإلا لما انقلب الميراث لعنة علينا كلنا من دونه.

أثارت العبارة فضول ندى ففهمّت بسؤال غالية عن معنى كلامها، إلا أن الحاجة زينب أنهت الحوار قائلة:

- صه، لا يليق هذا الكلام أمام الأغراب.

ثم حاولت تلطيف الجو فقالت:

- مرحبًا بكما، لم يكن عليكما أن تقطعا كل هذه المسافة لتعزيتنا.

أجابها عاصم:

- في الحقيقة نحن هنا للعزاء وللحصول على بعض الإجابات منكما لتساعدنا في الكشف عن قاتل أمير.

- أليست نجيّة؟

هتفت غالية، فنهرتها أمها ثانية قائلة:

- أغلقي فمكِ يا غالية ولا تذكري ابنة خالكِ بسوء.

- الآن تقولين ذلك؟ ألم تكوني وراء ما فعله غالب معها حينما أقسمتِ ألا..

نظرة مخيفة من عينَي والدتها المعتمتين جعلت غالية تبلع لسانها. وجّهت الحاجّة حديثها نحو ضيفيها قائلة:

- نجيّة فتاة طيبة. أمها كانت قاسية عليها ولم تكُن تدلل سوى أمير. لولا وصية جدهم المشددة لما تزوجها غالب.

- تزوجها من أجل أن يحصل على ميراثهما معًا، أليس كذلك؟

رمق عاصم ندى بنظرةٍ محذرةٍ بينما بدا الاستهجان على وجه الحاجة فقالت منفعلة:

- قطع لسان مَن يقول ذلك على ابني، غالب مهندس ناجح

ومقتدر، ولديه ميراثه من جده دون أي شرط.

هدأت قليلًا وهي تردف:

- جدهم كان يخاف على نجيَّة، كان يعلم طيبة قلبها وسذاجتها و..

قطعت الحاجة عبارتها لتحرك أصابعها بجوار أذنها اليمنى في حركة دائرية كناية عن خفة عقلها، ثم أكملت:

- أراد أن يحميها من الطامعين؛ لذلك أمر بزواجها من غالب. وقد حفظ لها غالب ميراثها، بل واستثمر لها جزءًا منه فأصبحت في سنوات قليلة أغنى واحدة في الأحفاد الأربعة.

تعجبت ندى من تناقض كلام السيدة مع ما تعلمه من حقائق فعقبت:

- نجيَّة قالت إن غالب جعلها تمضي ورقة التنازل عن ميراثها قبل إمضاء قسيمة الزواج.

- نجيَّة تقول الكثير، ونحن لا نصدق كل ما تقول، فعقلها ليس سليمًا كما تعلمين.

تدخلت غالية قائلة:

- ولكن يا ماما غالب بالفعل جعل نجيَّة توقع له التنازل.

- بعد الزواج وليس قبله، وذلك كي يحفظ لها ميراثها، لئلا تبدده كما فعلتِ أنتِ يا عبيطة.

أجابتها غالية في تهكم:

- صحيح، فغالب هو الملاك والجميع من دونه شياطين.

تبادلت ندى نظرات الحيرة مع عاصم وألف سؤال يطل من عينيها الذهبيتين..

مَن تصدق؟

أوراق نجيَّة؟ أم كلام عمتها؟ أم كلام غالية؟

***

-31-

رجلان وامرأة

تجاهل عاصم عينَي ندى المتسائلتين وسأل الحاجة:

- ماذا عن أمير؟

انبرت غالية تقول بعينين لامعتين وصوت رقيق:

- كان أجدعهم وأطيبهم قلبًا.. محبوب من الجميع ويملأ المكان ضحكًا وبهجة أينما حلَّ.

ثم أضافت بصوتٍ منكسر:

- ما كان له أن يموت بهذه الطريقة أبدًا..

- ألم تفيقي بعد كل ما حدث؟

سألتها أمها بنبرة حادة قاسية، ثم وجهت كلامها لضيفيها فشكت لهما بصوتها الأجش كيف أقنع أمير ابنتها بأن يستثمر لها ميراثها بعد اتفاقية الزواج المزدوج، ثم بدد أموالها وتهرَّب منها. وكيف أصبح غالب هو رجل العائلة الذي يقوم على احتياجاتهم جميعًا بمَن فيهم أمير. حتى إنه وجد له عملًا في فرع الشركة بالإمارات. عقبت غالية أن والدتها متحيزة ضد أمير لأنه لم ينفذ الاتفاق الذي قضى بأن يتزوج

كل أخ من أخت الآخر، فالتزم غالب بينما طلب أمير التأجيل حتى يرتب أموره المادية بعد أن دخل عدة استثمارات فاشلة. وأن الدليل على صدق نوايا أمير أنه لم يتزوج من أخرى، وأن موافقته على السفر إلى ليبيا برغم خطورته كان من أجل استكمال مبلغ المهر والشبكة الذي اشترطته أمها كي يتزوجا. ثم أخرجت لهم غالية وهي تغالب دموعها مجموعة أظرف قديمة أخرجت بها خطابات ذات لهجة رقيقة كتبها لها أمير بخط منمق حينما كانا صغارًا. عبارات تقطر حبًّا ووعودًا وردية، قبل أن تعصف نجيَّة بأحلامهما المؤجلة وترديه قتيلًا على قول أمها.

نقَّلت ندى نظراتها مدهوشة بين الحاجة زينب وابنتها اللتين بدتا وكأنهما في سجال عنيف حول الرجل الأفضل بين غالب وأمير.

لاحظت ندى وجود صور فوتوغرافية في إطارات صغيرة حول جهاز التلفزيون العتيق الذي يتوسط الغرفة. أشارت إليها متسائلة فجاءت بها غالية وجلست جوارها تريها إياهم.

جمعت الصورة الأولى الأربعة أحفاد وهم في مرحلة الشباب، كانت نجيَّة قد فقدت سنَّها، واكتسبت شعرها الأشعث وبدا ظهرها محدودبًا بوضوح، وكانت تنظر نحو آلة التصوير في براءة، وقد انفرج فمها عن ابتسامة كبيرة.

وقف بجوارها شابان ارتدى كل منهما قميصًا ملونًا فضفاضًا وسروالًا قماشيًا واسعًا فيما بدا أنه كان الطراز الرائج زمن التقاط الصورة فبدا الشابان متشابهين في الشكل والهيئة. أخبرتها غالية أن أمير هو مَن يقف بجوار نجيَّة وبجانبه غالب. وجوار غالب وقفت غالية، انسدل شعرها الأسود الناعم على كتفيها بينما رنا وجهها الأبيض البض نحو أمير في وله.

أما الصورة الثانية فكانت صورة حديثة، لم يكن بها أثر لسيدات العائلة، بل كانت لرجلين تتوسطهما امرأة فاتنة. كان لأحد الرجلين جسد تتفجر منه العضلات وللآخر لحية صغيرة ونظارة ذهبية، أما المرأة فكانت شقراء شاهقة البياض ذات عينين شديدتي الزرقة ويظهر جسدها مثيرًا من خلال فستان أحمر قصير مفتوح الصدر، وكانت تضع ذراعيها على كتفي الرجلين في أريحية.

قالت غالية مجيبة السؤال الذي ظهر جليًا في عينَي ندى:

- إيلينا.. زوجة غالب الروسية، كانت مديرة مكتبه في فرع الشركة في دبي، هام بها حبًا وتزوجا منذ سنتين تقريبًا.

قاطعتها الحاجة زينب قائلة:

- حبة عيني، كان يرفض الزواج من أخرى على نجيَّة وكان

مخلصًا لها فظل وحيدًا قرابة ثلاث عشرة سنة.

- ثم وقع في حبال إيلينا وسرعان ما تزوجا.

- لا تتكلمي هكذا عن زوجة أخيك.

قطعت ندى النقار بين المرأتين وهي تشير للرجل الذي وقف على يمين إيلينا سائلة:

- هذا هو غالب؟

- بل أمير.. غالب هو صاحب العينين الخضراوين والنظارة واللحية، بينما أمير عيناه بنيتان وحليق الوجه.

سألت ندى:

- هل رأت نجيَّة غالب ثانية بعد ليلة زفافهما؟

استنكرت الحاجة سؤال ندى مؤكدة أن ابنها كان يقوم بواجبه نحو نجيَّة بانتظام وكان يزورها كلما نزل في إجازة، حتى إنه أصر على زيارتها ليلة سفره هو وإيلينا إلى البرتغال منذ عدة أسابيع رغم رحيلهما متأخرًا من المنيا وضيق الوقت قبل موعد إقلاع طائرتهما. عقبت غالية على كلام والدتها بأنه إن كانت نجيَّة هي مَن قتلت أمير كما تدَّعي فإن ذلك سيكون بسبب تلك الزيارة المشؤومة. لا بد أن رؤية نجيَّة لغالب مع إيلينا أصابتها بنوبة جنون جعلتها تقتل أخاها

ثم تقتل القرد الذي ربته كبديل لزوجها الغائب.

عمَّ الصمت ليقلب كل منهم عبارة غالية الأخيرة في ذهنه..

استأذن عاصم بالرحيل، وما إن ركبا القطار حتى بادر ندى بسؤاله قبل أن تختفي وراء الستار:

- ما رأيك؟

- كلام المرأتين متناقض، برغم أنهما أم وابنتها.

- ولكن لهما مصالح متضاربة.. والقلب وما يريد.

- ماذا تعني؟

- طبيعي أن تدافع الأم، خاصة الصعيدية، عن ابنها، وتراه ملكًا وملاكًا.

- وغالية؟

- كانت تحب أمير وتثق به ثقة عمياء.

- والجد؟

- آه، الجد، ووصيته.. هي ملاك الأمر كله. حينما يتصور المرء أنه يحمي أحباءه ويضمن لهم حياة آمنة فيتحول الأمر إلى قيد وظلم يطاردهم..

حيرت تلك العبارة ندى كثيرًا، خاصة حينما عقب عاصم

بأن غالب إن كان شخصًا فاضلًا كما تتغنى به والدته، فكيف تزوج نجيَّة ثم تركها معلقة، فلا هو طلقها ولا هو عاش معها.

- الظلم في أبلغ صوره.

هتفت ندى، فأجابها عاصم:

- إلا إذا ..

ثم قطع عبارته وهو يفكر في شرود.

انقطع الكلام بينهما فانتهزت ندى الفرصة وتوارت خلف الستار البرتقالي الفاقع تفكر حتى وصلا إلى القاهرة وترجَّلا من القطار. وعلى رصيف المحطة، سأل عاصم ندى:

- ما هي خطوتنا التالية؟

الـ «نا» التي استخدمها عاصم جعلت ندى ترفع عينيها متسائلة، فعقب قائلًا:

- حسبت أنكِ مهتمة بتطورات القضية.

- مهتمة طبعًا.

- إذن سأطلعكِ على المستجدات.

قالها باسمًا ثم ابتعد فلاحقت قامته الممشوقة بنظراتها حتى اختفى عنها وسط الحشود.

***

-32-

أوراق أمير

حكت ندى لأختها كل ما دار في زيارة المنيا بعد عودتها. لاحظت شيرين أنها مهمومة، وما تلبث أن ترسل نظراتها بعيدًا وتشرد كلما واتتها الفرصة. سألتها:

- لم يخلع «الدبلة»، أليس كذلك؟

- هذا الأمر لا يعنيني..

- وشرودك؟

- أفكر في التناقض بين كلام الحاجة زينب وابنتها.

قبلت شيرين حجتها وسألتها:

- أيهما تميلين لتصديقها؟

- لست أدري، كلما راجعت المحادثة بعين خيالي أستشعر نوايا غامضة خلف عبارات غالية فأنفر من تصديقها، ثم أتذكر خشونة الأم وصرامة نظرتها الزجاجية المعتمة فتنتابني القشعريرة.

شكت شيرين في وجود حلقة مفقودة في الحكاية.. لماذا تجنب غالب نجيّة منذ ليلتهما الأولى ثم لم يطلقها حتى

يومنا هذا؟ وفي نفس الوقت لم يتزوج عليها لسنوات. ثم يقوم بزيارتها ورعايتها. تناقض غير منطقي.. أفضت بشكوكها لأختها فاعترفت ندى أن الأمر برمته غريب.

- لا أصدق أن غالب كان يزور نجيَّة، لقد ذكرت في أوراقها أنها لم تَرَه منذ ليلة الزفاف.

- أتصدقين كل ما كتبته؟ هذه سيدة معتلة نفسيًّا وعقليًّا، كلامها لا يُعوَّل عليه.

- أصدقها يا شيرين.

- أنتِ متعاطفة معها يا ندى، وهذا أمر مختلف. التعاطف هنا خطأ، سواء في مهنتكِ الحالية كصحفية أو المستقبلية كاستشارية نفسية. أنتِ مَن أخبرتني من قبل عن أهمية الفصل بين مشاعركِ وبين الحالات التي تتعاملين معها.

أطرقت ندى برأسها معترفة بأن أختها على حق، سوى أنها لا تملك طمس مشاعرها المتوحدة مع نجيَّة..

صورتها وهي صغيرة، ثم في شبابها البكر، ابتسامتها المحبة للحياة وعيناها الممتلئتان بالعاطفة.

لا يمكن أن تكون صاحبة هاتين العينين كاذبة أو قاتلة.

- إذن فلنذهب لزيارة دكتور مراد واستشارته.

- لم يخلع «الدبلة».. عاصم.

لم تعقب شيرين على اعتراف أختها سوى بآهة خافتة. كانت تعلم أن ذلك السبب الحقيقي وراء عبوسها، ولكنها آثرت الصمت كي تترك لها المجال لمزيد من البوح. تظاهرت بترتيب سطح طاولة مكتبها حينما انتبهت لكتلة ورقية متصلبة ومكومة. تذكرت أن والدتها أعطتها لها في الصباح. مدتها لندى قائلة إن والدتهما وجدتها في جيب سروال ندى بعد أن غسلته. تعجبت ندى، هي لا تذكر أنها وضعت أي أوراق في جيبها مؤخرًا. أخذت الكتلة المنبعجة وفتحتها برفق كي لا تفسدها فوجدتها مكتوبة بخط يد دقيق ومنمق. للوهلة الأولى لم تتذكر من أين أتت، ولكن خامرها شعور بأنها قد رأت هذا الخط في وقت قريب جدًّا. انتابها الفضول فقرأت بضعة سطور لتكتشف أن هذه الأوراق ما هي إلا خطاب. فقد بدأت إحداها بعبارة «أبي الحبيب» وذُيِّلت أخرى بـ «ابنك المحب أمير».

انتابتها قشعريرة مفاجئة إذ أدركت أن ما بين يديها من أوراق قد كتبته يد صاحب الجثة المتحللة التي وجدوها في تجويف الجدار المنكوب منذ أيام.

تذكرت حينئذ أنها قد وجدت تلك الأوراق بداخل إحدى المجلات في شقة نجيّة في زيارتها الأولى فدسَّتها في جيبها

ثم نسيت أمرها تمامًا حتى اليوم. أنبأها حدسها بأنها أوراق مهمة، وإلا فلِمَ احتفظت بها نجيَّة طوال هذه السنوات؟ كما لم تنسَ ندى أنها كانت مجعدة حينما وجدتها وقبل أن تلقى مصيرها من الغسل والنشر، وقد عزت هي ذلك حينها إلى دموع شخص ما.. في الأغلب نجيَّة.

تساءلت ندى عمَّا أحزنها كل هذا الحزن عند قراءتها؟

كان الورق في حالة مزرية بسبب الغسيل والتجفيف، إلا أنه كان قابلًا للقراءة. بنظرة سريعة استنتجت ندى أن الأوراق مأخوذة من عدة خطابات وليست خطابًا واحدًا. وكأن شخصًا ما اختار ورقة من كل خطاب، حيث كان المجموع ثلاث ورقات من ثلاثة خطابات مختلفة، فهمت منها ندى أن أباهما كان وقتها في إعارة لدولة الكويت بينما بقي كل من نجيَّة وأمير مع والدتهما في مصر.

جرت عينا ندى على السطور غير مصدقة ما تقرأ، قرأتها أكثر من مرة ولم تدرِ بنفسها إلا ويد شيرين تهزها برفق قائلة:

- ندى، لقد نمتِ ودموعكِ على خدك. ماذا حدث؟

اعتدلت ندى في جلستها وتحسست الورق المتغضن بين يديها متلعثمة:

- إنها.. الأوراق.

- ما بها؟

- نجيَّة كاذبة. وأنا ساذجة، وأنتِ والمقدم عاصم على حق.

- ماذا تعنين؟

- هل تذكرين حكاية شعرها الذي ادَّعت أنها فقدت نعومته بسبب المجاري؟

- نعم..

- كذبة. أخوها يحكي لأبيهما في الخطاب أن نجيَّة كانت تذاكر على ضوء شمعة بسبب انقطاع الكهرباء، فأمسكت النار بشعرها، وأخذت تصرخ وتجري في الشقة فيزداد شعرها اشتعالًا. انتبهت أمها فدسَّت رأسها في حضنها حتى انطفأ اللهب عن شعرها. ظلت رائحة الشياط تنبعث منها لعدة أيام ممَّا جعل الجميع يتجنبونها. شكا أمير لأبيه من أن نجيَّة اختلقت قصة الساعة والمجاري كي تورطه هو وغالب وتحملهما مسئولية فساد شعرها ورائحته الكريهة.

- غريبة.

أكملت ندى بنبرة مغرقة في اليأس:

- وسنُّها الأمامية، أتذكرين الحادثة التي ادَّعت أنها فقدتها

فيها حينما وقعت على وجهها من خزانة الملابس.

- مختلقة أيضًا؟

أجابتها ندى في كمد:

- نعم، وهي المتسببة فيها، كانت تعبث في حقيبة مستحضرات تجميل أمها وحينما سمعت صوت أقدام تقترب حاولت الاختباء منها في الخزانة فوقعت وانكسرت سنُّها.

كانت دموع ندى تنساب على وجنتيها وهي تحكي لأختها فحوى الخطاب. أدركت شيرين أن ندى لم تكن فقط مصدومة في نجيَّة.

بل كانت مهزومة!

مهزومة نفسيًا وعاطفيًا، وفي أضعف حالاتها على الإطلاق.

حاولت شيرين التخفيف عنها ببضع كلمات ففوجئت بها تقوم وتجمع أوراق نجيَّة مع خطاب أمير وأوراق القضية وترميهم في سلة القمامة معلنة أنها قد نفضت يدها من القضية، فالسيدة التي تحاول الدفاع عنها كاذبة. كاذبة من أعلى رأسها وحتى أخمص قدمها!

راقبت شيرين أختها وهي تفكر بسرعة كيف تنقذها ممَّا هي آيلة إليه.

- ندى، ما أدراكِ أن أمير هذا صادق؟ ألم تسمعي بأذنيكِ التناقض بين الحاجة زينب وابنتها؟ لماذا ستختارين تصديق أمير وتكذيب نجيَّة؟!

توقفت ندى عمّا تفعله مدهوشة:

- أنا لا أفهمك، منذ قليل كنت تدفعين باتجاه عدم تصديق نجيَّة.

- لكي نصل إلى الحقيقة، يجب أن نلجأ لشخص خارج هذه العائلة المتناقضة، شخص محايد لا مصلحة له في الكذب عليك.

- ماذا تعنين؟

- أفراد العائلة لهم مصالح متشابكة، وضغائن دفينة لا نعلم عنها شيئًا، لا يمكننا التثبت من رواية أحدهما على حساب الآخر، نحتاج غريبًا عنهم ليكون الحكم. راجعي أوراق نجيَّة، وابحثي عن حادثة يمكن التأكد من صحتها عن طريق شخص من خارج العائلة.

كفكفت ندى دموعها ونظرت إلى شيرين متفكرة، ابتسمت ثم مدت يدها في سلة القمامة وأخرجت الأوراق التي تخلصت منها منذ دقائق فمسدتها وبدأت تقرأ فيها من جديد.

تنفست شيرين الصعداء وهي تراقب أختها وقد عادت الدماء إلى وجنتيها. لم تكن شيرين معنية بصدق نجيَّة من كذبها، القضية برمتها كانت خارج نطاق اهتمامها. كانت مهمومة بندى.. وحريصة على أن تكون أختها سعيدة ما أمكن ذلك.

وبدا وكأنها نجحت!

***

-33-

الفتاة الأخرى

صبيحة اليوم التالي، وأخذًا بنصيحة شيرين، وقفت ندى أمام مكتب مديرة شئون الطلبة بمدرسة «مصر الجديدة النموذجية للبنات».

كانت قد عكفت على أوراق نجيّة حتى اختارت من بينها حادثة السوار الذهبي لتكون هي بالون اختبار صدق نجيَّة من عدمه. كانت تعلم أن الوصول لأي شخص يتذكر الحادثة بمثابة درب من دروب المستحيل. وهذه بعينها هي الدروب التي تهواها. من أجلها اختارت أن تكون صحفية واستشارية نفسية، لكي تسلك تلك الدروب ثم تعود منها بشيءٍ ما.

لم تكد ندى تخبر مدام انتصار مديرة شئون الطلبة بالعام الدراسي الذي تريد الاستفسار عنه حتى انفجرت السيدة في الضحك. ثم قالت لزميلتها الأصغر سنًّا في سخرية:

- هل تظن أننا نفتح «المندل» هنا؟

حاولت ندى تذكيرها بأوصاف نجيّة، بل وأخرجت لها صورتها على الهاتف ولكن لم يبدُ على السيدة أنها تذكرت أي شيء. كانت ندى على وشك الرحيل في يأس، حينما

استوقفتها الزميلة الأصغر قائلة:

- لحظة واحدة، أريني الصورة.

تمعنت زميلتها في الصورة ثم أشارت إلى أم نجيَّة قائلة:

- أليست هذه ميس مديحة رحمها الله، كانت مدرسة الدراسات الاجتماعية. أنا أعرفها، وأعرف نجيَّة ابنتها أيضًا. كانت أصغر مني بدفعة.

لقد حدثت المعجزة!

***

سألتها ندى في لهفة عن حادثة السوار الذهبي ولكن لم يبدُ عليها أي معرفة بالأمر. انزوى الأمل في قلبها سريعًا كما انتعش، إلا أن القدر أبى أن يتركها ترحل كسيرة الخاطر.

هتفت مدام انتصار قائلة:

- هل قلتِ آيات الخازندار؟ الاسم ليس غريبًا عليَّ.

هتفت زميلتها:

- نعم لقد تذكرت، إنها حاليًا مديرة مدارس الخازندار الدولية التي يملكها والدها.

شكرتهما ندى وتوجهت من فورها إلى موقع المدرسة

المذكورة وهناك سألت على السيدة آيات، وبعد محاولات عديدة مع مديرة مكتبها نجحت في مقابلتها لعدة دقائق.

استقبلتها السيدة آيات بابتسامة آلية وأرشدتها نحو أحد المقاعد وهي تشير لها بالانتظار حتى تنتهي من المكالمة الهاتفية. انهماكها في المكالمة سمح لندى بتأملها.. امرأة متوسطة الطول، يبرز أنفها الضخم أسفل النظارة الأنيقة التي ترتديها، بدت على ملامحها آثار عمليات شد بشرة مبكرة جعلت وجهها مشدودًا كقطعة من اللحم المقدد. تغطي شعرها بـغطاء رأس مربوط إلى أعلى على شكل عقدة ضخمة، تظهر من تحته خصلات شعرها الملونة بعناية.

فاتحتها ندى في سبب مجيئها فأجابتها آيات قائلة:

- بالطبع أتذكر نجيَّة، لقد كانت..

ثم توقفت عن الكلام بغتة واتجهت نحو باب غرفة مكتبها ففتحته ونادت قائلة:

- هبة، تعالي، إنها تسأل عن نجيَّة زميلتنا في المدرسة أثناء الطفولة.

انضمت إليهما مديرة مكتبها وعلى ملامح وجهها تساؤل صامت، بادرت آيات بتعريفها قائلة:

- هبة صديقتي منذ أيام المدرسة، نحن لم نفترق تقريبًا، حتى عندما عينني والدي مديرة للمدرسة لم أجد أفضل منها كي تكون مساعدتي.

منحتها هبة ابتسامة امتنان باهتة، فأردفت آيات:

- هبة أيضًا كانت زميلة لنجيَّة، أتذكرينها يا هبة؟

أومأت هبة برأسها بالإيجاب دونما تعقيب فاسترسلت آيات قائلة:

- نجيَّة كانت أكثر فتيات الفصل إزعاجًا لي، حاولت مصاحبتي والتصقت بي وتبعتني في كل مكان. لم أكن أطيقها، عاملتها بقسوة ونعتها بأسوأ الألفاظ كي أتخلص من ملاحقتها، ولا فائدة.

توقفت عن الكلام فجأة ومنحت ندى نصف ابتسامة وهي تستدرك قائلة:

- طبعًا هذا كان خطأً منِّي، كنت صغيرة، كنَّا كذلك جميعًا.. أليس كذلك يا هبة؟

أتبعت سؤالها بضحكة قصيرة أنبأت ندى بأنها ليست نادمة على أيٍّ ممَّا فعلته بنجيَّة.

اتسعت عينا ندى وهي تسألها في أمل:

- هل يعني هذا أن نجيَّة بريئة من واقعة سرقة السوار الذهبي؟

تغير وجه آيات وأجابت بصوتٍ كالفحيح:

- لم تكن بريئة. لقد وجدوه في حقيبتها. أتذكر المشهد جيدًا، تفتيش المدرسات للحقائب. وقوفهن طويلًا أمام حقيبة نجيَّة، ثم الحلقات الذهبية اللامعة وهي تظهر حلقة تلو الأخرى تسحبها يد المعلمة ببطءٍ من أحد جيوب حقيبتها أمامنا جميعًا. أتذكرين يا هبة؟

بلعت هبة ريقها وأومأت برأسها، فأعادت آيات سؤالها بنبرة تستحث الإجابة:

- أتذكرين يا هبة؟

تكلمت هبة لأول مرة قائلة:

- كلنا رأينا السوار الذهبي أثناء إخراجه من حقيبة نجيَّة.

أردفت آيات:

- نجيَّة نفسها التي كانت مصرة على براءتها، بعد أن رأت السوار يخرج من حقيبتها انكمشت على نفسها واعترفت بالسرقة.

تبخَّر الأمل من ملامح ندى وشكرت آيات بصوت مهزوم

وهمَّت بالرحيل حينما استوقفتها آيات قائلة في تلذذ حاولت مداراته:

- هل هناك مواقف أخرى تريدين التأكد منها؟ لقد كنَّا زميلات دراسة ونعرف عنها كل شيء.

لم تستطع ندى تفسير تلذذ آيات بالأمر، فقد بدا لها أنها قد حازت من الدنيا على الكثير، على عكس نجيَّة التي لم يحبها أحدا!

شكرتها ندى وتركت لها رقم هاتفها في حال تذكرت شيئًا ينصف نجيَّة، ثم خرجت واليأس يحوم بجناحيه حولها..

ينتظر لحظة الانقضاض الأخيرة.

***

عادت ندى إلى منزلها تتنازعها مشاعر عدة.

إحساس عميق بالانهزام والخذلان.. لقد أملت أن تكتشف صدق نجيَّة في هذه الواقعة على الأقل. أن تمتلك سببًا واحدًا مقنعًا يجعلها تدافع عنها وتقف في صفها.

ثم كان هناك الشعور بالضياع، فبعد أن كانت قضية نجيَّة تستحوذ على وقتها وفكرها، الآن أصبحت بلا هدف بعد أن تسربت الخيوط كلها من بين أصابعها. سيتعين عليها البحث

عن موضوع جديد والبدء فيه من الصفر، كيف تفعل ذلك وقلبها لا يزال مشغولًا بالسيدة المنكوبة التي حيرتها.

انتشلتها رنة الهاتف من أفكارها، كان المتصل هو طارق. استغربت، فبعد ما حدث بينهما في شقة نجيَّة كان يتعامل معها في أضيق حدود الزمالة. ردت عليه، لاحظت رنة السعادة في صوته وهو يسألها:

- هل انتهيتِ من تقرير نجيَّة؟ نريد أن ننشره.

- وهل انتهت القضية؟

- ألم تسمعي؟ لقد خرج الملف من مكتب المقدم عاصم للنيابة العامة بعد أن وجَّه لنجيَّة الاتهام بقتل أخيها أمير.

- بهذه السرعة؟

- الرجل يريد إغلاق الملفات المعلقة في مكتبه قبل إجازة الزفاف.

- زفاف؟!

- لقد وصلتنا الدعوات على مقر الجريدة، هم السابقون ونحن اللاحقون يا فتاتي.

***

- 34 -

ذهبت ولن تعود

انتبهت شيرين لوجه أختها الذي ازداد ذبولًا بعد مكالمتها الأخيرة، وبنظرة واحدة منها أفضت لها ندى بفحواها. استوقفتها عبارة طارق الأخيرة فسألت:

- ماذا يعني؟

اغتصبت ندى ابتسامة وهي تقول:

- أن نتزوج.

امتقع وجه شيرين.

- هل ستوافقين؟

- ولِمَ لا؟ طارق شخص محترم وناجح وطموح، ويحبني. ماذا سأريد بعد ذلك؟

- أن تحبيه؟

- سأحبه.

شعرت شيرين بالغضب، ضعف أختها أغضبها.

- ستندمين.

انفجرت فيها ندى صارخة:

- ألن تكفُي عن القيام بدور الوصية عليَّ، أنتِ أختي الصغيرة لا تنسي ذلك. ثم إن كنتِ خبيرة ببواطن الأمور كما تدعين، لماذا يهرب من حولكِ الرجال؟ حسام ثم رامز ومَن قبلهما ومَن بعدهما.. يخافون منكِ لأنكِ تعيشين في دور الفتاة القوية المتحررة، ثم تريدين منِّي أن أحذو حذوكِ فأفقد فرصي أنا الأخرى كي لا تظلي وحدكِ دونما زواج.

حدقت شيرين في ندى غير مصدقة، ثم وقفت وأخذت حقيبتها وسترتها وخرجت.

***

ظلت ندى جالسة على فراشها واجمة حتى غلبها النوم. في الصباح، لم تجد حقيبة سفر شيرين ذات العجلات في مكانها في ركن الحجرة، علمت أنها سافرت في رحلة جديدة، فشعرت بالندم على ما قالت، دون أن تعلم أنه ندم أتى متأخرًا.. جدًّا!

***

رن هاتفها، توهج اسم عاصم، دق قلبها، أجابت، فاجأها بنبرة مرحة وهو يقول:

- صباح الخير يا ندى، لقد وعدتكِ بإخباركِ بمستجدات القضية؟

تمالكت نفسها وأجابته:

- القضية؟ ألم تنتهِ وتُرسَل للنيابة؟

استغرب صوتها البارد، وكلماتها.

- صحيح، مبروك على الزفاف وشكرًا على الدعوات.

- دعوات؟! أي دعوات؟

- الدعوات التي وصلت لنا في الجريدة. أما بخصوص القضية، فأنا ببساطة لم أعد مهتمة.

أنهت ندى المكالمة، ثم أطفأت هاتفها وخبأت رأسها في وسادتها.. كانت تريد أن تتوارى عن العالم بأكمله، عن أختها التي جرحتها، وعاصم الذي خذلها برغم أنه لم يعدها بشيء، وطارق الذي يبدو خيارًا واعدًا، ولكنها لا تحبه ولا تريده. وأخيرًا نجيَّة، التي شكلت ندى أملها الوحيد في النجاة! ثم ها هي تكتشف كذبها وتنهار كل آمالها.

انسابت دموعها الحارة على وجنتيها تبلل وسادتها.

تردد صوت جدتها الراحلة في أذنيها، تمامًا كما اعتادت أن تقول لها كلما رأتها تبكي:

- أنتِ أقوى من ذلك.. أقوى بكثير يا ندى.

- لست قوية، وعجزي أن أكون قوية وجريئة مثل شيرين جعلني أجرحها.

- لا يجب أن تكوني قوية مثل شيرين، بل كوني قوية مثل ندى.

- لم أكن أبدًا قوية.

- بل لديكِ قوى هائلة مدفونة تحت قناعاتك.

- ماذا أفعل؟

- لا تستسلمي للخيارات السهلة.

- أنا متعبة.

- أنتِ اخترتِ العمل في مهنة شائكة، فكيف تدَّعين الضعف؟ أفيقي وارفعي رأسكِ وواجهي مشاكلك.

- شيرين لن تسامحني.

- بل هي تنتظر مكالمتك.

- وعاصم؟

- إن لم يدرك قيمتك، فلا يلزمك.

- وطارق؟

- هذا اختيارك، ولكن يجب أن يتم عن قوة لا عن ضعف.

- قلبي ضعيف وواهن.

- أجّلي القرار حتى تشعري بقلبك قويًّا.

- ونجيَّة؟

- هي الأهم، تحتاجك، أنتِ تعلمين الكثير.

- هل هي بريئة؟

- سلي قلبك.

تفتَّح قلب ندى بعد حوارها المتخيل مع جدتها، وكأنما أمدتها ذكراها بقوة ويقين. رفعت رأسها عن وسادتها وحاولت مهاتفة شيرين إلا أنها وجدت هاتفها مغلقًا فأرسلت لها رسالة صوتية محمَّلة بمشاعرها، بضعفها وحيرتها وعجزها الذي دفعها للإساءة، بكل الندم والحب وأحلامهما المشتركة. جدتها على حق، قلب شيرين الذي يسع الكون بأكمله لا بد وأنه سامحها قبل أن تحاول الاعتذار.

وضعت هاتفها ونظرت في أوراق نجيَّة. قلبها لا يزال يحدثها ببراءتها. ولكن كيف لها أن تتخطى كذبها الصريح؟ يجب أن تجد حدثًا ما ولو صغيرًا يؤيد شعورها، تفاصيل

بسيطة تكون بمثابة الشرر والدافع لها للاستمرار، وإلا فعليها أن تتخلى عن القضية برمتها.

جمعت ندى الأوراق وجلست أمام طاولة مكتبها وفتحت حاسبها اللوحي ورسمت تخطيطًا لأفراد أسرة نجيَّة وكل الأشخاص في محيطها، ثم كتبت كل ما تعرفه عن كل منهم. استيقظ حسها الصحفي فوجدت نفسها تدون بضعة أسئلة جوار كل اسم. انتهت فعادت بظهرها إلى الوراء تتفكر في السبيل الذي ستتبعه للوصول لإجابات تلك الأسئلة.

في هذه اللحظة فتحت والدتها باب الغرفة دون أن تطرق عليه، وهتفت بنبرة ملتاعة:

-لقد فقدنا شيرين!

***

-35-

على متن الطائرة

انتفضت ندى من مكانها كالملسوعة وتفجرت الدموع من عينيها وهي تسأل مرتعبة:

- ماذا حدث لشيرين؟ حادث طائرة؟ أهي بخير؟

أعادت الأم رأسها للوراء في استغراب قائلة:

- فأل الله ولا فألكِ يا ندى، شيرين بخير، هي فقط لن تعود.

- ماذا تعنين؟

- لقد قبلت عرض شركة الطيران بالاستقرار في البحرين.

- متى حدث ذلك وكيف عرفت؟

- أبلغتني الآن.

أمسكت ندى بهاتفها وحاولت الاتصال بشيرين، ظل الهاتف يرن بلا رد. شعرت ندى بالعجز مجددًا، احتارت ماذا تفعل وكيف تُثني شيرين عن قرارها المتسرع الذي نتج ولا شك عن كلامها الجارح. تذكرت عبارة جدتها «لا تستسلمي للخيارات السهلة». أخذت حقيبتها وهرعت إلى الخارج، استقلت السيارة باتجاه مطار القاهرة حيث مكتب شركة

الطيران التي تعمل بها أختها. وصلت إلى هناك وأصرت على الدخول إلى مدير العمليات الذي اضطر أخيرًا لاستقبالها. اختلقت له قصة عن وعكة مفاجئة أصابت والدتها وضرورة الوصول لشيرين، قام بمراجعة جدول العمليات ليخبرها بأن شيرين على متن طائرة بالفعل، ستُقلع خلال دقائق.

***

«الآنسة شيرين حمزة السيوفي.. رجاء التوجه إلى كابينة الطائرة».

انخلع قلب شيرين حينما سمعت النداء الذي تردد في جنبات الطائرة. هرعت إلى كابينة القيادة حيث وجدت الطيار يسلمها سماعات الرأس، امتقع وجهها وهي تضع بكفين مرتجفتين السماعات على رأسها متوقعة الأسوأ.

- شيرين، سامحيني.

- ندى؟ ماذا حدث؟

كانت عيون الطيار ومساعده مسلطة على وجه شيرين في قلق.

- لا يمكنكِ الانتقال إلى البحرين، سأنتحر.

- لن تنتحري، بل ستعيشين سعيدة ومتحررة من ضغطي.

حلَّ الفضول محل القلق في عيون زميلَي شيرين إزاء سماعهما عبارتها الأخيرة.

- لا أستطيع الحياة من دونك. أرجوكِ سامحيني.

- هذا ليس وقتًا مناسبًا. الطائرة متجهة الآن للبحرين.

قالتها شيرين بصوتٍ أقرب إلى الهمس وهي تكاد تذوب حرجًا أمام زميليها.

- سأبلغ بوجود قنبلة على متن الطائرة وهكذا لن تُقلع، وستضطرين للعودة إلى البيت.

- هل جُننت؟

- قليل من الجنون لن يضر، وبالمناسبة، لن أتزوج طارق، ولن آبه بعاصم، وسأواصل البحث في قضية نجيَّة.

- هذه أمور تخصك، سأنهي المحادثة.

- سأنتظركِ غدًا لنذهب للدكتور مراد سويًا، ثم نسافر معًا إلى المنيا.

استطاعت شيرين بالكاد كتم ضحكتها وهي تُنهي المحادثة مع أختها. أومأت برأسها للطيار ومساعده في امتنان دون أن تروي فضولهما الذي احتل ملامحهما.

خرجت شيرين مسرعة من الكابينة واستطاعت قبل إقلاع الطائرة أن ترسل رسالة صوتية إلى ندى تخبرها فيها بأنها ستعيد النظر في قرار الإقامة بالبحرين. أطفأت هاتفها وبدأت بممارسة مهام عملها في بهجة تعجب لها زملاؤها بعد أن لاحظوا وجومها منذ الصباح.

***

عادت ندى إلى السيارة وهي تشعر براحة شديدة وكأن همًّا كبيرًا انزاح من على كاهلها. رنَّ هاتفها برقم غير مسجل فأجابت على الفور:

- آنسة ندى؟

- مَن المتكلم؟

- أنا هبة.. مديرة مكتب الأستاذة آيات الخازندار.

تذكرتها ندى على الفور، المرأة الباهتة التي كانت أشبه بظل آيات، تؤمِّن على كل ما تقول..

- أهلًا أستاذة هبة.

صمتت هبة فسألتها ندى:

- كيف يمكنني مساعدتك؟

- في الحقيقة.. لديَّ ما أقوله.. وهو.. آآ مختلف بعض الشيء عن كلام آيات.

- بخصوص نجيَّة؟

- نعم، آيات تبدو صارمة لكنها تملك قلبًا كبيرًا، ونحن لم نتعمَّد إيذاء نجيَّة، كان مقلبًا ولكنه انقلب للجد ولم نتمكن من فعل الشيء الصحيح.

- لا أفهم!

- نجيَّة.. هي.. لم تسرق السوار، بل نحن مَن خبأناه في حقيبتها.

- ماذا؟

- أرجو أن تفهميني.. لقد كنَّا مجموعة صديقات معتزات بأنفسنا، ونجيَّة كانت فتاة.. مختلفة. مظهرها الأشعث وجواربها المتهدلة وشطائرها الملفوفة في ورق الجرائد القديم جعلتنا ننفر منها. تعرفين كيف يكون الصغار.

- أعرف..

أجابتها ندى كاذبة.. فهي لا تعرف كيف يكون الصغار بهذا الشر.

- حاولنا أن نتجنبها وندفعها بعيدًا عنَّا بالسخرية تارة

والسخافة تارة أخرى إلا أنها كانت دومًا تعود لتحوم حولنا وتحاول مشاركتنا في اللعب، وحينما كنَّا نرفض كانت تفسد علينا أوقاتنا. في اليوم الذي أتت فيه آيات مرتدية سوارها الذهبي، رأتها نجيَّة وأبدت إعجابها به فتفتق ذهن آيات عن فكرة لإبعاد نجيَّة عنَّا. اتفقنا على أن نضع السوار في حقيبة نجيَّة ثم تدعي آيات ضياعه مع الكثير من الدموع والتذكير بمنصب والدها المهم. انقلبت المدرسة وتم التفتيش ووُجد السوار الذهبي في حقيبة نجيَّة فتمت معاقبتها وتحذيرها بشدة من الاقتراب من آيات. نجحت خطتنا ولم تقترب منَّا نجيَّة ثانية. ونسيت أنا الواقعة حتى أتيتِ أنت. أشعر الآن بتأنيب الضمير على ما فعلته؛ لذلك قررت إخباركِ بالحقيقة لعل ذلك يساعدها ويكفر عن ذنبي.

- أشكركِ أستاذة هبة، بالقطع سيساعد. أنا ممتنة لبادرتكِ الطيبة.

أرادت ندى أن تُكمل: أرجو أن يغفر الله لكِ مشاركتكِ في كسر قلب الفتاة الصغيرة. إلا أنها لم تفعل وأنهت المكالمة وقد انتعش الأمل في قلبها من جديد.

لقد استردت أختها، واستردت إيمانها ببراءة نجيَّة، وأمامها الآن معركة يجب أن تحسم.

***

غابت شيرين عن البيت ثلاثة أيام لم تتوقف فيها الرسائل الصوتية بين الأختين تخططان لخطوتهما التالية في قضية نجيَّة. لم تكن ندى جادة حينما أخبرت أختها عن عزمها زيارة الطبيب والسفر إلى المنيا، كانت محاولة لإثارة فضولها فحسب، إلا أن شيرين فاجأتها باستحسانها لفكرة السفر إلى المنيا قائلة:

- هناك سنجلو أسرارًا كثيرة ونُميِّز الحقيقة في كلام عمة نجيَّة وابنتها.

- لماذا ستقولان لنا كلامًا مختلفًا هذه المرة؟

- سنسأل الجيران وأصحاب المحال في المنطقة، كلمة من هنا وكلمة من هناك، سنضع يدنا على الحقيقة.

- أتتوقعين أن يتعاون معنا أهل الصعيد ويكشفوا أسرار بعضهم بعضًا أمامنا نحن الغرباء عنهم؟ وهل تظنين أن ترشدنا الإجابات التي نبحث عنها لقاتل أمير؟

لم تجد شيرين إجابة مباشرة. لم تكن تريد أن تُعشِّم أختها ببراءة نجيَّة، فهي نفسها لم تكُن متيقنة منها بخلاف إيمان ندى الشديد بها. هدف شيرين كان الوصول لحقائق صلبة تبني عليها رأيها في القضية. اتفقت الفتاتان على ضرورة البحث عن المستفيد من مقتل أمير للوصول للقاتل. الطريقة

الوحيدة لمعرفة ذلك هي الإحاطة بكل علاقاته وخصوماته قدر الإمكان، ليس هناك مكان أفضل للبدء من بلدته مسقط رأسه.

ما إن حطت طائرة شيرين على أرض مصر حتى كانت ندى بانتظارها خارج أبواب صالة الوصول لكي تنطلقا في رحلتهما نحو الحقيقة!

***

-36-

إلى المنيا ثانية

في القطار، جلست الفتاتان متقابلتين بجوار النافذة، تمامًا مثلما جلست ندى في رحلتها السابقة للمنيا مع..

لا، لا تريد أن تفكر في الأمر.

لاحظت شيرين وجوم أختها فعزته لقلقها من الرحلة لأنهما تقومان بها على عاتقهما الشخصي دون إخبار الجريدة، ولا عاصم بالطبع. وصلتا إلى المنيا بعد صلاة الظهر بقليل، وبعد بحث سريع على «الإنترنت» اختارتا مطعمًا صغيرًا قريبًا من بيت الحاجة زينب لتناول الإفطار وتقفي الأخبار.

تصاعدت الروائح المدهشة من مطعم الفول والطعمية الصغير، فجلست الفتاتان على مائدة صغيرة خارج المحل وطلبتا ما لذَّ وطاب وأكلتا حتى امتلاء بطنيهما وارتسمت ابتسامة الشبع والرضا على شفتي كل منهما. طلبت شيرين من العامل شايًا بالنعناع، فاعتذر لها قائلًا إن المطعم لا يُقدِّم المشروبات الساخنة، ثم نادى بأعلى صوته قائلًا:

- ولد يا هيمااا، اثنان شاي بالنعناع هنا للعرائس.

على الفور، خرج من القهوة المقابلة للمحل صبي أسمر

ضئيل، يرتدي جلبابًا قصيرًا وطاقية ملونة، ويحمل على كفه بمهارة صينية ألومنيوم صغيرة عليها كوبان من الشاي يتصاعد منهما البخار، وما إن اقترب حتى ظهرت وريقات النعناع الخضراء اليانعة وهي تسبح في الكوبين بينما تصاعدت رائحتها المنعشة لتداعب الأنوف.

شكرت شيرين الصبي وأعطته نفحة مغرية جعلته يهتف:

- هذا كثير والله، من أين أنتما؟ ليتكما تأتيان كل يوم!

ضحكت شيرين وبدأت تتبادل معه أطراف الحديث حتى وصلت لمبتغاها قائلة:

- وهذه ندى أختي، صحفية.

- أعرف، رأيتها مع الضابط في زيارة الحاجة زينب.

- وهل تعرف الحاجة؟

- بالاسم فقط، فنادرًا ما تخرج هي أو ابنتها.. أختي ميادة هي التي تنظف للحاجة زينب المنزل وتجهز لها الخضراوات، وكثيرًا ما تحكي لي عنهم.

تبادلت شيرين نظرات متقدة مع ندى، فها هما قد وقعتا على مصدر غني بالمعلومات في أول ساعة لهما بالبلدة.

- أمي تحب الخضراوات الطازجة، هل يمكن أن تجهز لنا

ميادة ما نحتاجه حتى يحين موعد القطار؟

- طبعًا، هذا رقمها، اطلبي منها ما تريدين. واحتياطيًا أعطني رقمكِ كي أمليه عليها، فهي قد لا ترد على أرقام غريبة.

شكرته شيرين، واتصلت بأخته التي ردت على الفور بخلاف ما ظنه أخوها. طلبت منها خضراوات متنوعة، ولكنها اشترطت أن تلتقي بها في السوق أثناء الشراء كي تتأكد من أنها طازجة ووعدتها بأن تجزل لها العطاء. رحبت ميادة ووصفت لها السوق.

وصلت الأختان إلى السوق وأخذتا تبحثان بين وجوه الفتيات عن «ميادة» شبيهة بصبي القهوة: فتاة سمراء ضئيلة الحجم بجلباب وغطاء رأس. اقتربت منهما فتاة بيضاء مليحة ربعة الجسد في العشرينيات من عمرها، تعقص شعرها في كعكة أعلى رأسها وترتدي سروالًا أسود وقميصًا مربعات، هتفت بهما:

- لا بد أنكما الأختان من القاهرة، أنا ميادة.

رحبت ندى وشيرين بميادة التي لاحظت الدهشة في نظراتهما فقالت ضاحكة:

- لا أشبه هيما في شيء، نحن إخوة من الأب.

أسرتهما ميادة بمرحها وخفة ظلها.. اقترحت عليها شيرين أن تنسى أمر الخضراوات وتصحبهما في جولة بالبلدة كمرشدة سياحية بمقابل مادي مُجزٍ. رحبت ميادة بالفكرة، وهكذا..

انطلقت الفتيات الثلاث في جولة حرة بمحافظة المنيا، بدأت بمركب في النيل مرورًا بزيارة بعض الآثار، ثم تسوق المشغولات اليدوية والتوابل من محال السوق القديمة وانتهت بتناول الغداء في مطعم مشويات شهير.

امتلأت البطون باللحم والدسم، فرُفعت الأطباق لتحل محلها طواجن أم علي الغارقة في القشدة تعلوها المكسرات كقمة جبل ثلجي شامخ، وتصاحبها أكواب الشاي بالنعناع.

أزالت سويعات المرح الأخيرة الحواجز بين الفتاتين وميادة.. نظرت شيرين نحوها وقالت:

- ميادة.. نحتاج لمساعدتك.

- تأمريني، خضار، مشتريات، حِنَّة.

- بل عمل.

- جولة أخرى؟

- تحقيق صحفي تقوم به ندى حول نجيَّة، أتعرفينها؟

- ست نجيَّة، كانت طيبة والله، أطيب قلب فيهم. منهم لله بقى.

- مَن؟

- حكاية طويلة.

- نريد أن نسمعها.

ابتسمت ميادة وقد شعرت بأهميتها إثر زوج العيون المسلط عليها. امتدت يدها نحو الطاجن فغرفت منه ملعقة هرمية لاكتها بتلذذ والأختان تتابعانها في صبر نافد.. مدت يدها نحو كوب الشاي فارتشفت منه رشفة طويلة بطيئة قبل أن تقول بصوت واعد:

- صلوا بنا على النبي..

***

-37-

الدنجوان

جلست شيرين بجوار ندى في غرفتهما بالمنزل وقد تعلقت عيناها بشاشة الحاسب اللوحي الذي أخذت ندى تدون عليه بسرعة المعلومات التي جمعتها من ميادة.

كانت شيرين متشوقة لمناقشة الأمر مع أختها، ولكن طيلة طريق الرجوع وندى تخرمش بقلمها ملاحظات وعبارات سريعة في مفكرتها الصغيرة، ثم تعود فتقرأها لتضيف عليها أو تمحو منها حتى يئست منها شيرين وأسندت رأسها على نافذة القطار وراحت في النوم.

حكاية ميادة كانت مختلفة عمَّا دوَّنته نجيَّة، وعمَّا قالته الحاجة وابنتها. رواية ثالثة، ربما هي مزيج بين الروايتين مع الكثير من التفاصيل التي ربطت الخيوط ببعضها وجعلت الحكاية أكثر منطقية وتماسكًا، خاصة وقد حكتها الصبية بأسلوب ساحر مشوق كأنها تحترف الحكي منذ سنوات، أسرَّت لها ندى بذلك فعقبت ضاحكة:

- لا بد أنني ورثت الحكي عن جدتي، فكم من القعدات جمعتنا فيها بعد المغرب أمام الدار حول النار تشوي لنا الذرة وتحكي لنا حكاياتها المخيفة والغريبة حتى أصبح «أبو

رجل مسلوخة» ضيفًا دائمًا على موائدنا وقاسمًا مشتركًا في أحلامنا.

وهكذا..

تمكنت ندى أخيرًا من كتابة إجابات لكثير من الأسئلة التي كانت معلقة بجوار أسماء أسرة نجيَّة..

الرابط الخفي الذي ربط الأمور وجعلها تأخذ مكانها الصحيح في ذهن ندى كان الاتفاق الذي أبرمه الجد مع ابنه وابنته منذ سنوات بعيدة، وربما لم يكن هو فقط الرابط، وإنما الباعث على كثير من الأمور اللاحقة.

نص الاتفاق الذي اقترحه الجد على أن يتزوج غالب من نجيَّة بينما يتزوج أمير من غالية. استهدف الجد حماية أراضي العائلة من التبدد وحماية بنات العائلة من الأغراب. رحب الجميع بهذا الاتفاق عدا غالب. ولكنه، وبعد جلسة مغلقة مع الجد -لم يعلم أحد ما دار فيها- وافق. تم زفاف غالب ونجية سريعًا، وكما ذكرت نجيَّة في أوراقها وقَّعت في نفس الليلة تنازلًا عن إرثها لصالح زوجها غالب. أرادت الحاجة زينب أن يتم الزفافان في نفس التوقيت ولكنَّ مرضًا مفاجئًا ألمَّ بأمير تسبب في تأجيل زفافه على غالية. اغتاظت الحاجة وربما شعرت بالتلاعب، فأقسمت ألا يدخل غالب بنجية إلا بعد زفاف أخيها على أخته كما ينص الاتفاق. توفي

الجد، وأخذ أمير يُماطل في إتمام الزواج من غالية، وغالية تُدافع عنه وتنتظره.

ظل قَسَم الحاجة زينب نافذًا فلم يدخل غالب بنجية أبدًا. وقد أخبرتهما ميادة هامسة:

- لا يغرنكما شكل الحاجة الآن، منذ خمسة عشر عامًا كانت بصحتها، طول بعرض، مخيفة وشديدة، لا يجرؤ على عصيان أمرها أحد. كانت أمي تعمل لديها في ذلك الوقت وتأخذني معها أحيانًا، وكانت بالنسبة لي أخوف كثيرًا من أبي رجل مسلوخة وأُمِّنا الغولة. هل تذكران شخصية الحاجة «ونيسة» أم «رفيع بيه» في مسلسل «الضوء الشارد» أو الحاجة «فاطمة تعلبة» في «الوتد»؟ كانت تفوقهما في القوة والتحكم والجبروت.

حاولت ندى عبثًا ربط صورة الحاجة العجوز المقعدة التي رأتها بالصورة الشرسة التي تصفها ميادة فلم تفلح، إلا أن نظرات عيني السيدة المعتمين كانتا تشيان بالكثير.

أخبرتهما ميادة بأن نجيّة ظلت معلقة، لم يقضِ زوجها ليلة واحدة معها. تساءلت ندى إن وافق قَسَم الأم رغبة غالب فأكدت لها ميادة أنه كان طيب القلب ولم يكن يرغب في إيذاء نجيّة. حاول بعدها أن يطلقها ويُخلي سبيلها إلا أن والدته رفضت أيضًا، ظنًّا منها أن وضع نجيّة المعلق يضغط

على أمير.

- وهل ضغط؟

سألتها شيرين، فأجابتها:

- أمير لم يكُن له في الزواج، ليس له إلا العيش بحرية.

أخبرتهما بأن أمير كان يعيش مع والديه وأخته في القاهرة ولم يكونوا يزورون المنيا إلا في المناسبات والأعياد، لكن ذلك لم يمنع أمير من نسج علاقات متعددة مع فتيات البلدة.

- كان له سحر عجيب.. رحمه الله.

نبرة ميادة التي أصبحت أكثر نعومة واحمرار وجنتيها جعل شيرين تسألها:

- وهل حاول استمالتك؟

ضحكت الفتاة ثم أتبعتها بتنهيدة طويلة قبل أن تقول دون مواربة:

- لم يترك فرصة رآني فيها في بيت الحاجة إلا وأسمعني معسول الكلام، ربما لو لم يسافر للعمل في دبي لكان لي نصيب أكثر.

ثم استدركت قائلة:

- ولكنني لم أُجارِه بالطبع فهو كان معروفًا بتعدُّد علاقاته.

شعرت شيرين بأن العبارة الأخيرة قيلت من باب الكياسة لكن الفتاة سعدت بأن تحظى بقليل من اهتمام «دنجوان» المنيا.

تحمست ميادة لسيرته فسألتهما:

- هل رأيتما صورته؟ ستجدون له صورًا كثيرة مع غالب وإيلينا على حساب إيلينا على «الإنستجرام».

أجابت ندى:

- رأيت له صورة في بيت الحاجة زينب.

تنهدت ميادة ثانية وهي تقول:

- ألم يكن وسيمًا؟ بعينيه الساحرتين وجسده المثالي.. هل رأيتما وشم العقرب الذي كان يزين عضلاته البارزة؟

قالتها الفتاة وقد لمعت عيناها بالإعجاب. لم تخبرها ندى بأن ذاك الوشم هو المَعلَم الوحيد الذي تبقى من جثته المتعفنة ودلهم عليه. اكتفت بقولها:

- لاحظته، كان وشمًا مميزًا بالفعل.

سألتها شيرين:

- هل تعرفين أي واحدة من الفتيات اللاتي واعدهن أمير هنا، في المنيا؟

- الكثيرات.. ولكنها لم تكن مواعدة بمعنى الكلمة فذلك ليس سهلًا هنا والكل يعرفون بعضهم بعضًا. كانت مداعبات سريعة، فهو حبيب الفتيات وعدو الرجال، وكثيرًا ما قام العراك بسببه، حتى يُقال إن سفره السريع إلى دبي كان لإنقاذه من تهديدات له بالقتل من عائلات بعض الفتيات. وبعدها، حينما فُقِد في ليبيا انتشرت الإشاعات بأنه شوهد هنا في البلدة قبل أن يتخلص منه أحدهم انتقامًا لأخته أو ابنته.

تبادلت شيرين وندى النظرات، الدائرة تتسع، وحكايات ميادة قد أثمرت عن مشتبهين بهم محتملين خارج نطاق نجيَّة وأسرتها. سألتها ندى بغتة:

- ألا يمكن أن يكون غالب هو مَن قتل أمير؟

***

-38-

وجدتها

اتسعت عينا ميادة لسؤال ندى. نفت احتمال أن يكون غالب هو مَن قتل أمير بحركة سريعة من يدها قائلة:

- ولماذا يفعل «البشمهندس» ذلك؟ لقد تزوج ست الحسن والجمال التي لا تفارقه أينما ذهب ووصل لأعلى المراتب في عمله. صحيح أن الأستاذ أمير تسبب له في بعض المتاعب في شركة دبي، ولكن بعدها قتل الأستاذ أمير في ليبيا، ونال «البشمهندس» غالب ترقية مهمة وها هو قد سافر مع زوجته.

- ربما قتله انتقامًا من رفضه الزواج بغالية؟

- هذا الشاي قد برد، هل يمكن أن تطلبي لي كوبًا آخر؟

أومأت شيرين برأسها ونادت على العامل تطلب منه الشاي بينما كررت ندى سؤالها على الفتاة فأجابت:

- «البشمهندس» من صغره يفكر بطريقة أهل مصر، فلا يشغل باله بمسألة زواج الست غالية.

- والحاجة زينب؟

- كما قلت لكما صحتها في النازل، خاصة بعد أن سافر غالب، فغالب هو روحها، كان بارًّا بها طيلة عمره ويأتمر بأمرها، حتى في زواجه من نجيَّة أو تعليقه لها. ولكنه أصبح في الفترة الأخيرة جافًّا، لا يتصل بها إلا على فترات متباعدة. لقد سمعتها تقول لغالية إنها خائفة أن تموت قبل أن تراه ثانية.

- انشغل عنها بزوجته الجديدة؟

- هذا أكيد، أظن أن الحاجة لا تحبها. كانت تتمنى أن يتزوج بنت إحدى عائلات المنيا، لا أن يأتي بـ «خواجاية» من الخارج تستحوذ عليه.

سألتها ندى:

- وهل فعلت ذلك حقًّا؟

- للأمانة، كان يداوم على الاتصال بالحاجة كما اعتاد حتى سفره إلى البرتغال.

- الاتصالات صعبة؟

دسَّت الفتاة في فمها ملعقة مليئة بحلوى «أم علي» وأخذت تلوكها بتلذذ وهي تقول:

- ربما.. لقد اشترى غالب للحاجة هاتفًا حديثًا خصيصًا قبل

سفره ليتكلم معها من خلال أحد تطبيقاته، وظل يؤكد علينا أن نهتم بشحنه حتى ظننت أنه سيكلمها كل يوم ثم لم يعُد يفعل. المسكينة فقدت كثيرًا من وزنها في الأسابيع الأخيرة.

تذكرت ندى كيف كان جلباب الحاجة أكبر من قياسها.

- أظن أن بها مرضًا لا تخبر به أحدًا، لقد سمعت غالية تسألها شيئًا همسًا، فنهرتها الحاجة قائلة إن الجدران لها آذان.. ربما كانت تقصد أذنَي أنا.

قالتها ميادة وهي تضحك، ثم كتمت ضحكتها وهمست:

- أتعرفان.. أنا لا أرتاح لإيلينا، ألا يمكن أن تكون هي مَن قتلت الأستاذ أمير؟

بدا قولها وكأنه أمنية أكثر من أي شيءٍ آخر!

- ولماذا في رأيكِ قد تقتله؟

- هي صغيرة وجميلة.. أصغر من زوجها بكثير، أكيد عاكسها الأستاذ أمير كعادته، خاصة وأن ثلاثتهم عملوا معًا في نفس الشركة لفترة.

- تقتله لأنه عاكسها؟

ارتبكت الصبية وقالت:

- لا أعرف، أنا أفكر بالاحتمالات المختلفة.

كانت ندى منهمكة بتدوين ملاحظاتها حينما سألتها شيرين بغتة:

- ألم يكن مقتل أمير متزامنًا مع سفر غالب إلى البرتغال.

- صحيح.

- ماذا لو كان غالب قد فوجئ بأمير عند زيارته الأخيرة لنجية ليلة سفره، فتشاجرا وضرب أمير بالمزهرية فقتله.

صمتت ميادة للحظة وكأنها تدوِّر الفكرة في رأسها قبل أن تضيق عينيها وتسأل:

- ولماذا قد يتشاجران؟

شعرت ندى وكأن الصبية تعرف شيئًا وأن سؤالها كان اختبارًا أكثر منه فضولًا، ولكنها أجابتها:

- انتقامًا لأخته التي تركها أمير، أو بسبب مشاكل الشركة واختفائه الغامض في ليبيا، أو لأنه عاكس زوجته كما اقترحتِ.

عقبت شيرين:

- نظرية لا بأس بها، ولكن هذا يعني أن زوجته ونجية

متورطتان، أو على الأقل تسترتا عليه.

- ربما رأيا أن موت أمير سيكون أفضل للجميع، خاصة وأنه أمام الحكومة ميت بالفعل.

- وهل موته أفضل لنجيَّة؟ كان أخاها الوحيد!

ارتشفت الصبية رشفة طويلة من كوب الشاي وكأنها تتلذذ بانتظارهما لإجابتها، ثم قالت:

- بالنسبة لأسرته، لم يكن أمير سوى مصدر للمشاكل، أو هكذا يقولون عنه، مع أنني أرى أنه كان طيب القلب وكريمًا ومحبًّا للضحك والحياة.

- مشاكل مثل ماذا؟

- لم يكن يعمر في أي وظيفة، كانت هناك دومًا مشاجرات بسبب المال والميراث وأشياء أخرى. الله يرحمه كانت يده «فِرطة»، وما فيها ليس له. يهادي الجميع بأشياء جميلة، وذلك كان يتطلب الكثير من الأموال بالطبع.

قالتها الفتاة وسرحت بعينيها في الأفق..

استرجعت ندى نظرتها، كانت نظرة تجمع بين الوله والانبهار، أعقبتها بتنهيدة طويلة، ارتبكت على أثرها حينما شعرت بنظرات الأختين مسلطة عليها. قدرت ندى أنها

كانت تفكر في أمير والهدايا التي فازت بها منه، وربما أحبته بالفعل، ولكن هل تعرف شيئًا أبعد ممَّا قالته؟

قطعت شيرين أفكارها بقولها:

- لا يجب أن ننسى احتمال انتقام أحد أقارب الفتيات اللاتي غرر بهن أمير.

- ولكن كيف سيعرفون أنه لا يزال على قيد الحياة ويتردد على نجيَّة؟

- ربما لأحدهم صلة بنجيَّة، أو بأحد المترددين عليها.

تفكرت ندى في هذا الاحتمال للحظة، ثم هتفت:

- وجدتها!

وأشارت في إثارة لأحد الأسماء الموجودة على الشاشة أمامها، قرأته شيرين في استغراب:

- عم حامد؟

***

-39-

كااااذبة

اتقدت عينا ندى وهي تقول:

- عم حامد هو الرجل الذي وكَّله غالب للقيام على شئون نجيَّة، لقد أتى ذكره في المحضر. وقد شوهد أكثر من مرة يخرج من البناية حاملًا قطعًا من الأثاث ومتعلقات من الشقة، أغلب الظن أنه كان يسرقها.

- وهل له ابنة؟

- لا أعلم، ولكني أظنه من المنيا، إن لم تكن له ابنة فربما يكون على اتصال بأسرة إحدى الفتيات اللاتي غرر بهن أمير وأخبرهم عن ظهوره وتردده على بيت نجيَّة.

- أليس هذا احتمالًا بعيدًا بعض الشيء؟

- فلنقربه، اتصلي بميادة واسأليها.

- ولماذا أنا؟

أجابتها ندى في نفاد صبر:

- لأنكِ تجيدين الكلام أكثر مني.. ولأن رقمها معك.

هزت شيرين رأسها مقتنعة وهي تطلب الرقم بصمت، ثم تقول بصوتٍ محايد:

- آلو.. ميادة.. أريد أن أسألكِ عن عم حامد الذي كان يتابع أمور نجيَّة، هل تعرفينه؟

- ...

وكزتها ندى كي تفتح مكبر الصوت.

- هل له ابنة؟

- شيماء.. أكبر مني بقليل، لماذا؟

- هل لها علاقة بأمير؟ أعني هل كانت من الفتيات اللاتي تودد إليهن؟

شهقت ميادة ثم قالت:

- شيماء؟ بوجهها المفلطح كأنما داس عليه القطار، ورائحة عرقها التي تصلكِ أينما كنت. لا يمكن أن ينظر لها الأستاذ أمير.

قالتها ميادة بنبرة استنكار وكأن علاقة محتملة بين أمير وشيماء هي إهانة مباشرة لها!

- هل أنتِ متأكدة؟ لقد ذُكر في المحضر أنها كانت تأتي بين

حين وآخر مع أبيها لكي تنظف شقة نجيَّة.

صمتت الفتاة لحظة ثم أردفت في تردد:

- ربما.. ربما غازلها أمير كما يغازل بقية البنات، لم تكن لتمثل له شيئًا..

- هل يمكن أن يقتله عم حامد بسبب تلك المغازلات؟

- إن قتل عم حامد أحدًا سيكون من أجل المال لا غير. إنه كلب نقود، لا يأبه لأسرته ولا يزورهم إلا مرة كل عدة أشهر.

- وماذا عن شيماء؟ هل يمكن أن تكون التقت به في شقة العباسية وحصل بينهما خلاف؟ ربما كان قد وعدها بالزواج، أو حاول التحرش بها مثلًا؟

- بشيماء؟! صدقيني لم تكن الطراز الذي يعجب الأستاذ أمير ولكن..

- ماذا؟

- شيماء لها بنية قوية و.. وعصبية بعض الشيء. والآن حينما أفكر أجدني لم أرَها منذ فترة، لا في السوق ولا على شط النيل كما اعتادت أن تلتقط أنفاسها بين عمل وآخر. اتركيني يومين أسأل وأعسعس لكِ عنهما.

همَّت شيرين بإنهاء المكالمة حينما سألتها ميادة بغتة:

- لماذا لم تفكري في عم عزب؟

- مَن هو؟

- حارس عقار شقة العباسية.

قفزت إلى مخيلة ندى على الفور صورة وجه أحمر يتفصد منه العرق ينظر إلى الحائط في هلع وقد تهدل شاربه الضخم وانكمشت قامته كثيرًا.

دق قلب ندى واتسعت عيناها.

- ماذا عنه؟

- ألا تعلمين أنه بلدياتنا؟ من المنيا.. نزح إلى العباسية منذ عشرات السنوات ولم يعُد يزور البلدة حتى انطوت سيرته. على علاقة بعم حامد على ما أعلم، أخبرتني شيماء أنه هو مَن رشح أباها للمهندس غالب كي يقوم بدور الراعي لأمور الست نجيَّة أثناء سفره.

أنهت شيرين المكالمة وهي تتبادل النظرات مع ندى، سألتها:

- كيف لم نفكر في حارس العقار من قبل؟ هو أقدر الجميع على الإجهاز على أمير. هل رأيتِه يا ندى من قبل؟

- نعم، كان شديد الارتباك يوم اكتشفنا الجثة، كيف لم أنتبه لذلك في حينها!

- هل يكون القاتل؟ وحينما فُتح الجدار أيقن بهلاكه؟

صمتت ندى تفكر ثم أردفت قائلة:

- بالتأكيد بحث عاصم هذا الاحتمال، فالحراس هم أول مَن تستجوبهم الشرطة في أي جريمة.

- ربما لم يعلم عاصم بالعلاقة القديمة التي تربط الحارس بالأسرة والمنيا وبالتالي لم يكن هناك دافع ولا رابط.

- ربما.. هناك احتمال أيضًا أن تعاونًا ما تم بين الحارس وبين عم حامد.

- هل لاحظتِ انفعال ميادة حينما ألمحنا عن علاقة بين شيماء وأمير؟

سكتت وهي ترفع كتفيها وتخفضهما في حيرة.

ظللت ندى اسم عم حامد وأضافت اسم عم عزب على قائمة أسماء المشتبه بهم. ثم التفتت نحو أختها قائلة:

- أتعلمين؟ بما أن عم حامد هذا «كلب نقود» كما وصفته ميادة، وكما تبين من سرقته لمنقولات شقة نجيَّة. فربما يكون أمير فاجأه متلبسًا بالسرقة فقام عم حامد بالتخلص

منه ودفنه في الجدار.

تحمست شيرين لنظرية ندى قائلة:

- وربما كان عم عزب يسهل له السرقة أو يساعده في نقل المنقولات، وتعاون معه في التخلص من أمير بعد أن كشفهما. مَن غيرهما لديه الفرصة لطلاء خزانة الحائط الخشبية وإخفاء معالمها، ونقل المكتبة الضخمة من مكانها؟ لا أظن أن نجيَّة برغم قوتها البدنية قادرة على فعل ذلك وحدها.

أطرقت ندى برأسها لحظة قبل أن تُعقِّب:

- ولكن أليس من الغباء أن يصعدا جريمتهما من السرقة إلى القتل؟

- كثيرًا ما تتحول جرائم السرقة إلى قتل بسبب خوف المجرم من انكشاف أمره كسارق.

أطرقت ندى برأسها تفكر.. وبعد فترة سألت أختها بصوتٍ خافت:

- هل نتصل بالمقدم عاصم ونخبره عن شكوكنا؟

اغتاظت شيرين وقبل أن ترد تعالى صوت نغمة سريعة من هاتف ندى، نظرت فيه ثم قالت لشيرين بعينين متقدتين:

- رسالة صوتية.

ثم أرخت جفنيها وأضافت بصوتٍ خفيض:

- منه.

اختطفت شيرين الهاتف من يد أختها وهي تقول:

- لن تسمعيها.

- لماذا؟

سألتها ندى بصوت نائح فأجابتها شيرين آمرة:

- افتحي شاشة المحادثة ولا تسمعي الرسالة. هكذا سيعلم أن رسالته وصلت، وأنكِ رأيتها ولكنكِ غير مهتمة بسماعها.

ترجتها ندى:

- ولكنني مهتمة.

تنازلت شيرين قليلًا فقالت من بين أسنانها:

- سأرسلها إلى هاتفي واسمعيها منه.

استسلمت ندى وهي تُذكِّر نفسها بأن أختها على حق، وأن رغبتها الصبيانية في التواصل معه لن تجلب لها سوى مزيد من الأسى، خاصة وأن زفافه على الأبواب. فماذا تريد منه؟

ظل سؤالها معلقًا في صدرها، لا تستطيع صرفه، ولا تملك

إجابة عنه.

فتحت شيرين هاتفها وشغلت الرسالة ليعلو صوت عاصم الرخيم:

- آنسة ندى، لدينا مشتبه به جديد في القضية، وكما تعلمين ذلك قد يبرئ ساحة نجيَّة. إن كنتِ مهتمة، تفضلي بزيارتي في مكتبي بالقسم غدًا في تمام العاشرة صباحًا.

نظرت لها شيرين، وهي تقول:

- طبعًا تريدين الذهاب.

- أنا؟ لا.

قالتها وهي تشيح بوجهها، بينما ارتفع صوت من أحشائها يصرخ: «كاااااذبة».

***

-40-

دليل جديد!

في تمام العاشرة طرقت ندى باب غرفة مكتب المقدم عاصم بالقسم، وقد رسمت على محياها أمارات الجدية. استقبلها عاصم بأسارير منبسطة قلّما رأتها عليه، أشار لها أن تجلس وبدأ كلامه دون أن يشير للمكالمة الأخيرة بينهما قائلًا:

- لقد أخطأ مَن أبلغكِ بأن القضية أُغلقت. تحرياتنا كانت مستمرة. توصلنا لشخص تحوم حوله الشبهات وهو..

- عم حامد؟

نطقا الاسم في ذات اللحظة، فعلت وجهيهما الدهشة، ثم ابتسما، فضحكا..

التقت أعينهما، وتعلقت النظرات، لبرهة، لا يعلم طولها إلا الله..

سعل عاصم واستطرد قائلًا:

- نعم، عم حامد، لدينا العديد من الشبهات تحيط به، خاصة أنه قد اختفى عن الأعين منذ أن وجدنا الجثة.

نظر إلى ندى ثم سألها في اهتمام:

- كيف خمَّنتِ اسمه؟

- حكاية يطول شرحها، ولكن ماذا عن عم عزب؟

- الحارس؟

- نعم.

- لقد تحققنا منه بالطبع، ليس له علاقة، لماذا تسألين عنه الآن؟

- لأنني لم أكن أعلم عن علاقته بعم حامد والمنيا إلا بالأمس.

تجمدت ملامح عاصم وهو يكرر عبارتها في بطء:

- علاقته بحامد؟ والمنيا؟

ارتبكت ندى وهي تخبره بزيارتها للمنيا وما علمته مؤخرًا من ميادة. احتقن وجه عاصم وضرب سطح طاولة مكتبه في غضب أرعبها، مستنكرًا أن تصله تلك المعلومة عن طريق الصدفة بعد كل التحريات التي تمت في القضية. نادى على مساعده وأسمعه بضع عبارات هادرة جعلت الدماء تهرب من وجه الرجل وهو يختلس النظرات إلى ندى التي بدت محرجة أكثر منه. صرف عاصم المساعد وهو يتوعده. ثم..

ولدهشة ندى العارمة، استعاد في لحظة هدوءه وانبسطت أسارير وجهه وهو يبتسم لها قائلًا:

- هيَّا.. احكِ لي عن زيارتكِ للمنيا بالتفصيل.

بث تحول عاصم المفاجئ الاضطراب في نفس ندى وألجم لسانها. شعرت بأنها أمام أحمد زكي في فيلم «زوجة رجل مهم» واعتراها عدم ارتياح مبهم لم تعتده معه. كان عاصم ينظر إليها متلطفًا بانتظار حكايتها. حاولت لملمة شتات نفسها فاغتصبت ابتسامة وبدأت تحكي له باقتضاب ثم انفرجت أساريرها وهي تخبره عن مغامراتها هي وشيرين وعن ميادة وما قالته.

تخلل حكايتها الكثير من الضحك حتى إن أمين الشرطة لم يفتأ يرمق عاصم بنظرات الدهشة. أنهت ندى حكايتها وهي تُخرج من حقيبتها ورقة مطوية فردتها على المكتب، انثنت الورقة على نفسها فمد عاصم يمناه كي يثبتها.

تلامست أصابعهما.

سرت الكهرباء في جسديهما.

وتوقف الزمن..

***

سحبت ندى أصابعها سريعًا في خجلٍ فلمست شيئًا معدنيًا باردًا.

خاتم خطبته البلاتيني يلمع في وجهها متحديًا.

تبدّلت نظرتها، وغطى هو يمناه بكفه اليسرى.

اغتصبت ندى ابتسامة سريعة ووقفت وهي تقول:

- في هذه الورقة كل التفاصيل التي توصلنا إليها، أرجو أن تكون ذات فائدة.

ثم خرجت سريعًا قبل أن يتسنى له التعقيب.

***

عاد عاصم بظهره إلى الوراء في مقعده. أخذ نفسًا عميقًا ورفع أمام ناظريه الورقة التي تركتها ندى يتأملها في شرود. ظاهر الأمر أنه مشغول بما فيها من معلومات، أما الحقيقة، فهي أنه لم يستطع جمع شتات أفكاره.

كان مشغولًا بـ.. ندى!

ولمستها.. تلك اللمسة التي أطلقت كهرباء غامضة في جسده تقلصت لها أحشاؤه.

عدم قدرته على تفسير ما اعتراه أغضبه، نهر نفسه قائلًا:

لست تلميذًا ساذجًا كي تشعر بمثل هذه الأحاسيس. أفق لنفسك.. تلك الفتاة ليست من الطراز الذي يستهويك. صغيرة ساذجة، ترتدي ملابس صبيانية. ماذا يعجبك فيها؟ أنت تحتاج بجوارك سيدة مجتمع ذكية ولبقة، سيدة ذات حضور لافت وعلاقات اجتماعية قوية تفتح لك الأبواب، لا فتاة ساذجة تحمل أنت همها.

أنت تحتاج إلى ميهان.

صوت يتداخل مع صوته. صوت ذو نبرة أنثوية متسلطة.. صوت والدته!

أدرك عاصم مدهوشًا أن تلك لم تكن كلماته، بل الكلمات التي رددتها عليه مدام شهيرة مرارًا وتكرارًا حتى تلبسته دون أن يعي.

خلع من إصبعه خاتم الخطبة وتأمل اسم ميهان المحفور بداخله وهو يسأل نفسه: ماذا تعني له؟ حاول أن ينفض عنه كلمات والدته ويبحث بداخله عن صوته هو.

أن يهز قلبه ويوقظه ويسأله عمًّا يريد حقًّا؟

اسم ميهان المحفور بداخل خاتم الخطبة استدعى صورتها إلى خياله.. جمالها الأخاذ، وطلتها الساحرة. دغدغت مشاعره اللذة التي اعتاد أن تعتريه كلما مشى بجوارها، والرقاب التي

تتلوى نحوهما، والحسد الذي يتبدى في العيون.

أعاد عاصم خاتمه إلى بنصره وضغطه في قوة ليُثبته، ويُثبت صاحبته معه!

ثم خبط بيسراه على سطح مكتبه نافضًا عنه أي شكوك.. حاسمًا أمر قلبه إلى الأبد.

***

خرجت ندى من قسم الشرطة مرتبكة لا تفهم هي الأخرى المشاعر التي اعترتها.. أرادت الهروب من أفكارها فتوجهت نحو الجريدة عازمة على إغراق نفسها في تقرير صحفي جديد حتى تنتهي التحقيقات وتستطيع إنهاء تقرير نجيَّة.

اقتربت من باب المقر، ففوجئت بفتاة فارعة الطول والجمال تخرج منه ناشرة حولها هالة من الياسمين ومسك الليل وزهر البرتقال. ورأت من خلفها طارق واقفًا يشيعها بعينين تكادان تخرجان من محجريهما وراءها. لأول مرة ترى نظرات طارق صريحة ومباشرة هكذا.

نظرات «شرهة» إن جاز لها التعبير.

انقبضت معدتها على نحو مفاجئ.

ارتبك طارق لمرأى ندى التي تجاهلته وأكملت طريقها حتى

وصلت إلى المكتب، وانتهز هو الفرصة فتوارى عنها في المطبخ متظاهرًا بإعداد الشاي.

جلست ندى وقد شعرت بالغضب يتصاعد بداخلها. غضب مبهم لم تدرِ له سببًا.

أرادت يائسة أن تحتوي غضبها. قررت - للمرة الأولى - تجربة نصيحة شيرين المتكررة بأن تحاول إدارة غضبها بدلًا من الانفجار فيمَن أمامها ثم دفع الثمن في كل مرة. استرجعت كلمات أختها: «الغضب شعور. كل شعور وراءه فكرة.. اسألي نفسكِ ما الفكرة التي تسببت لكِ بهذا الشعور».

بالبحث وراء غضبها، حددت أن سببه رؤيتها للفتاة الجميلة تخرج من الجريدة بعد أن كانت - فيما يبدو - مع طارق. أهي غيرة؟ أثارت الكلمة توترها وشعرت بالفعل باهتزاز في صورتها الذاتية.

إنها الغيرة إذن. ولكن لماذا؟ هل تغار على طارق؟

توقفت عند هذا السؤال لا تعرف كيف تجيبه. ثم قالت لنفسها إن السؤال الصحيح هو: هل تحب طارق؟

واجهت نفسها بهذا السؤال للمرة الأولى بدلًا من المسكنات المتكررة المتمثلة في «هو يحبني» كلما برز السؤال على السطح. تفكرت للحظة، ثم أدركت مدهوشة أنها لا تحب

طارق، بل هي حتى ليست معجبة بشخصه.

وحينها تبدت لها الحقيقة وكأن أحدًا رفع الغطاء عن عينيها.

هي لم تشعر بالغيرة من الفتاة على طارق. وإنما شعرت بالغيرة من جمالها.

كان الأمر ببساطة.. غيرة امرأة من امرأة.. غيرة مسببة ومشروعة.. وإلا فما هي الغيرة الأكثر مشروعية من لحظة تغار فيها امرأة من أخرى بسبب فتنتها الطاغية!

عند هذه النقطة تنفست ندى الصعداء، وتبدد شعورها بالغضب ليحل محله شعور بالفخر. لأول مرة تتبع غضبها وتصل لجذر الفكرة وراءه..

أصدر هاتفها صوت استقبال رسالة نصية، قرأتها سريعًا فتبخرت كل مشاعرها الجيدة كأنها لم تكن. رسالة مقتضبة من عاصم نصها:

«دليل جديد، نجيَّة هي الفاعلة..»

حدقت في الشاشة غير مصدقة.

أظهر التطبيق أن عاصم لا يزال يكتب، يكتب ويتوقف، تساءلت عمَّا يكتبه. ثم قرأت:

«أعلم كم تكرهين ذلك.. آسف»!

***

-41-

عصفور النار

تشتعل النيران صغيرة.. ثم تكبر.. وتكبر..

تمتد ألسنتها الذهبية البراقة.. تتوهج.. وتتراقص في مجون أمامي.. لتلتهم كل شيءٍ من حولي.. وتتمدَّد..

يتآكل الجلد الأبيض ويتساقط عن الجدران.. ينكشف القطن الذي وراءه فيشتعل ويتطاير ناشرًا اللهب في كل مكان مثل عصافير النار.

صدري يتمزق.. أسعل وأسعل..

الوحش البرتقالي الكاسر يبتلع الغرفة.. كم أخافه وأكرهه.. ولكن مَن غيره ينقذني منهما..

لم أستطع تحملهما معي في مكانٍ واحد.. طلبت منها كثيرًا أن تخلصني منهما فلم تفعل.

اللذان هربت منهما طيلة حياتي.. أجدني في نهاية المطاف منحبسة معهما في غرفة واحدة..

ليلة تلو الأخرى.. يصمَّان أذني بأحاديثهما الشريرة عني.. تخرج أصواتهما من السلة فتتكاثر من حولي. تتصاعد

رائحتهما النظيفة العطرة فتخنقني.. ليلة تلو الأخرى.. ولا مهرب.. مزقتهما إلى عشرات القطع الصغيرة اللامعة.. فحاصرتني.. ولا فكاك..

وحدها النار تستطيع..

***

أعاد الدليل الجديد الذي جاء به عاصم ندى إلى المربع صفر.

أثبت التقرير الأوَّلي للطب الشرعي وجود بصمات نجيَّة على أداة قتل أمير، ألا وهي التمثال الجرانيتي المهشم. تعلم ندى جيدًا أن أفراد النيابة والشرطة لا يعترفون إلا بالأدلة المادية. ولكن بالنسبة لها، فقلبها هو بوصلتها، ومن بعد رأيه تجد لكل شيءٍ سببًا وتفسيرًا.

احتارت في تفسير الدليل، هل هذا التمثال يمكن أن يكون هو نفسه الذي قتلت به نجيَّة القرد، ومن الطبيعي أن تكون بصماتها عليه، أم إن القاتل لفَّق هذا الدليل كي يُشير إلى نجيَّة.

كل الاحتمالات مفتوحة.

لو أنها فقط رأت في عيني نجيَّة أثرًا ممَّا رأته في عينيها

وهي طفلة، لكانت تأكدت تمامًا من براءتها.

ولكن نظرتها الزجاجية الخاوية التي لا تشي بشيء، والدليل الجنائي الذي جاء به عاصم، وتشخيص الدكتور مراد وقناعته بأنها قادرة على العنف والإيذاء. كل هذه الأمور تجعلها تتشكك..

هل تكون نجيَّة فعلتها؟

ربما في لحظة غضب..

هي في كل الأحوال ليست مسئولة عن تصرفاتها.

أم أنها..

قررت ندى قطع الشك باليقين. أخذت رقم د. مراد من شيرين واتصلت به. كانت تريد منه أن ينفي أو يؤكد قدرة نجيَّة على قتل أخيها وإخفاء جثته بهذه المهارة. بيد أنه فاجأها بأحداث مشتعلة.. حرفيًا لا مجازًا، إذ قال:

- لقد كادت نجيَّة أن تلقى حتفها محترقة.. أشعلت النيران في غرفتها.

بهتت ندى وتصارعت الأسئلة على لسانها:

- كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟

- الأمر برمته غريب.. بدأ حينما ظلت تلح على الممرضة بأن تفرغ سلة المهملات بالغرفة، ولما كانت السلة شبه فارغة، ظنت الممرضة أنها نوبة من الذهان لن تلبث أن تتبدَّد فلم تُلقِ لها بالًا. فإذا بنجية تشعل النيران في السلة بواسطة قدَّاحة اكتشفنا فيما بعد أنها اختلستها من أحد العمال أثناء قيامه بالصيانة في غرفتها منذ فترة.

- ولكن لماذا؟

- لا نعلم ما الذي أثارها إلى ذلك الحد في سلة القمامة، فقد احترقت بمحتوياتها.

سلة القمامة!

قفزت إلى مخيلة ندى نصف صورة ممزقة قابعة في قعر السلة.. نصف صورة يطالعها منها وجهان ينظران.

انقبض قلبها وتساءلت: «هل قتلت نجيَّة أخاها؟ ثم قامت بإحراق صورته؟ أم إن إحراق الصورة دليل على أنها فعلت بخيالها ما لم تستطع فعله في الواقع؟»

أفضت بشكوكها للطبيب فأجابها بنبرة أقلقتها:

- قلت لكِ سابقًا، نجيَّة عنيفة، وقادرة على الإيذاء.

أجابته ندى معاندة:

- لم أرَ منها سوى كل لطف ودعة.

- حينما أنقذناها من الحريق لطمت الممرضة لطمة شديدة وهربت منَّا مستغلة الهرج والمرج بسبب النيران. ظلت مختفية ليلة كاملة نبحث عنها بين أروقة المبنى وغرفه حتى إننا أطلقنا صافرات الإنذار ظنًّا منَّا أنها هربت من المبنى رغم حراسته المكثفة.

- وهل هذا ممكن؟

- نظريًّا مستحيل، ولكننا شككنا في أن تكون قد تلقت مساعدة خارجية ما.

- وهل وجدتموها؟

- طبعًا.. ظلت مختبئة في صمت بداخل إحدى خزانات غرفة التمريض لساعات طوال حتى وجدناها.

أنهت ندى المكالمة مع الطبيب بحيرة متزايدة وقلب يخفق في قلق وقد تذكَّرت ما كتبته نجيَّة عن حبستها في خزانة الملابس وهي صغيرة..

تساءلت في وجل إن كان الأمر له دلالة ما!

***

تمنت ندى لو تباحثت الأمر مع شيرين إلا أنها كانت

مسافرة في رحلة طويلة. لم يتواصل معها عاصم، ولا هي سعت للتواصل معه. الأمور في الجريدة سارت كالمعتاد باستثناء التحفظ الذي غلف معاملة طارق لها، وهو ما ارتاحت له أكثر. أعادت قراءة أوراق نجيَّة مرة تلو الأخرى، تتأمل صورتها وتتفكر فيها وتتساءل إن كانت قد فعلتها كما يظنون!

ظلت الأمور هادئة لعدة أيام بلا جديد. بعد مرور أسبوع، بدا لندى وكأن انعدام الأحداث في تلك الأيام السابقة كان تمهيدًا لتسارعها المفاجئ في الأيام التي تلتها..

استقبلت شيرين فور عودتها من السفر مكالمة غير متوقعة من «هيما» صبي القهوة بالمنيا يسأل عن أخته.

استغربت شيرين سؤاله، وبالاستفسار منه، فهمت أن ميادة قد اختفت فجأة. ولأنها أخبرته سابقًا بتعاونها مع الأختين القادمتين من «مصر» في تحقيق صحفي بخصوص نجيَّة. ظن هيما أن أخته ربما سافرت إليهما لمزيد من المهام. ولكن ما أقلقه حقًّا هو أن هاتفها مغلق منذ أن اختفت. ولقد حاول الاتصال بشيرين في اليوم التالي لاختفاء أخته إلا أنه وجد هاتفها غير متاح.

أخبرت شيرين الصبي بأنها لا تعلم شيئًا عن ميادة. وعدته بالاهتمام بأمر اختفائها، وهي لا تعلم كيف ستتمكن من فعل

ذلك. أنهت المكالمة ثم سألت ندى في قلق:

- أتظنينها هربت مع أحد الشباب؟

لم تشاركها ندى رأيها، وقد دبَّ القلق في قلبها بدورها. شعرت بمسئولية مبهمة تجاه الفتاة، خاصة أن أخاها يظن أن اختفاءها له علاقة بهما.

- لماذا يظن أنها سافرت إلينا؟ هل أخبرته بما يوحي بذلك؟

هزت شيرين رأسها نافية ثم ناولت ندى هاتفها كي تتصل به وتسأله عمَّا تريد، ففعلت.

- هيما، منذ متى اختفت ميادة؟

- منذ خمسة أيام، استيقظتُ صباحًا ولم أجدها، فراشها لم يُمس. خرجت لأجد أمي تبكي خارج الدار وأبي ينهرها ويتوعد ميادة.

- ما الذي جعلك تظن أنها سافرت إلينا؟

- كانت متحمسة جدًّا في اليوم الذي التقت بكما فيه. وسعيدة بالمال الذي أخذته منكما. بدت مشغولة البال في الأيام التالية وكأنها تخطط لشيءٍ ما. قبل اختفائها بيوم كانت تنتظر مبلغًا كبيرًا من المال؛ لذلك ظننت أنكما قد وعدتماها بشيء.

تبادلت الفتاتان النظرات.

- الأمر خطير.

قالتها ندى بصوت أجش عكس القلق الذي اعتمل في جوفها.

- لقد هربت مع أحدهم وسرعان ما سينكشف الأمر.

- أرجو أن تكوني على حق.

عقبت ندى وهي تشعر ببرودة مفاجئة تغزو صدرها.

***

بعد يومين قرأت ندى خبرًا في إحدى الجرائد الإلكترونية:

«العثور على جثة فتاة مجهولة في منتصف العشرينيات من عمرها على شاطئ النيل بالمنيا، والتحريات جارية لكشف غموض الحادث».

تسارعت ضربات قلب ندى وهي تتصل بعاصم، ليرد عليها صوت ناعس ناعم النبرات:

- آلو.

- المقدم عاصم موجود؟

- أنتِ ندى الصحفية أليس كذلك؟ عاصم مشغول. سيكون

عريسًا بعد أقل من أسبوعين. كما تعرفين. هل وصلتكِ الدعوة؟

- ...

- سننتظرك.

قالتها ميهان بنبرة جليدية ثم أنهت المكالمة دون انتظار رد ندى.

وضعت ندى الهاتف من يدها وقد اغرورقت عيناها بالدموع. حاولت أن تتمالك نفسها، مسحت دموعها واتصلت بشيرين:

- لقد وجدوا جثة ميادة. يجب أن نسافر إلى المنيا على الفور.

***

-42-

ماذا عن القتل؟

ما كادت أقدام الفتاتين تمس أرض المنيا حتى اتصلت شيرين بهيما ليوافيها عند مطعم الفول والطعمية حيث تم لقاؤهم الأول.

وجدت الصبي الأسمر في انتظارهما، بجلبابه وطاقيته الزاهية، لم يزد عليه سوى مسحة بؤس كست وجهه الذي كان ضاحكًا قبل الفاجعة.

لم تكن شيرين متأكدة إن كانوا قد ربطوا الجثة بميادة بعد، ولكن حدس ندى كان حاسمًا بخصوص هذا الأمر. وجه الصبي الشاحب كان بمثابة التأكيد الذي شجعها للمضي قدمًا.

- الجثة التي وجدوها كانت لها؟

قالتها ندى بنبرة تحمل من السؤال بقدر ما تحمل من التقرير، أجابها الصبي بهزة من رأسه ودمعة انسدلت من عينه.

- ما الذي حدث؟

أخبرهما الصبي كيف عثروا على الجثة التي جرفها التيار

نحو الشاطئ.

- جثة ميادة.. تعرف عليها والدنا في المشرحة.

أخبرها بأن أفراد الشرطة يظنون أنها لقيت مصرعها إهمالًا، إذ شوهدت الليلة السابقة لاختفائها متجهة تحت ستر الظلام نحو بقعة معزولة على شاطئ النيل، مشهورة بلقاء الأحبة بعيدًا عن العيون. ومعروفة بأرضها الزلقة. يظنون أنها ربما فقدت توازنها وزلَّت قدمها أثناء انتظارها لأحدهم فهوت نحو قاع النيل دون أن يشعر بها أحد.

- ماذا تظن أنت؟

أجاب بصوتٍ يملأه اليقين:

- غير ممكن. ميادة كانت «ناصحة» وتعرف المكان جيدًا. لا يمكن أن تنزلق قدمها هكذا. كما أنها تجيد العوم والمياه هناك ليست عميقة.

كررت ندى كلمات الصبي أمام ضابط مباحث قسم المنيا بعد أن عرَّفت نفسها كصحفية. رحَّب بها الضابط وأجابها قائلًا:

- كلام الصبي به وجاهة؛ لذلك نبحث في فرضية الانتحار.

رفعت ندى رأسها نحوه مندهشة، فأردف:

- كما قلتِ، المكان المذكور زلق. يمكن أن ينزلق أحدهم منه بسهولة نحو الماء. ولكن المياه ضحلة في تلك البقعة، لا تتسبب في الغرق، خاصة إذا كان الشخص يجيد السباحة.

سألته ندى:

- هل تعني أنها تعمَّدت الموت؟

صمت الضابط للحظة وقد بدت الحيرة على ملامحه ثم أجابها:

- هذه ليست البقعة المناسبة للانتحار بسبب ضحالة المياه كما أسلفت. على بُعد أقل من عشرين مترًا هناك مكان خطير بحق، عميق، وتيار المياه فيه شديد، يسحب الشخص فورًا إلى القاع.

- لماذا ستنتحر الفتاة؟ هل تركت خطاب انتحار أو ما شابه؟

- لم تترك شيئًا. بيد أن المحيطين بها أكدوا أنها كانت قلقة ومشغولة البال في أيامها الأخيرة.

- هذا ليس دليلًا على الانتحار.

رفع الضابط كتفيه وخفضهما في إشارة إلى حيرته. همَّ أن يعقب حينما قاطعه صوت قوي، رخيم النبرات:

- ماذا عن القتل؟

رفعوا رءوسهم نحو قائل العبارة الذي دخل لتوه من باب الغرفة..

كان عاصم.

***

قبل عدة ساعات، وخلال رحلة القطار إلى المنيا، كانت ندى قد حكت لشيرين على محاولتها الوصول لعاصم ورد خطيبته البارد، فاغتاظت شيرين وقالت من بين أسنانها:

- كم مرة يجب أن تتعرضي للسخافة كي تكُفِّي؟ أرجوكِ لا تحاولي التواصل معه ثانية.

أومأت ندى برأسها موافقة، ولكنها وجدت أصابعها تتجاهل نصيحة أختها، وتكتب له رسالة نصية سريعة: «حاولت الاتصال بك صباح اليوم. لقد وجدوا جثة فتاة في المنيا. أشك أنها ميادة التي أخبرتك عنها. أنا وشيرين في القطار إلى هناك».

توقعت ندى أن يرد عليها، حتى وإن كان ردًا مقتضبًا مثل أنها تتوهم أشياء، أو أنها تبالغ، ولكن ما لم تتوقعه هو أن يرى رسالتها ثم لا يجيبها.

أيقنت في حنق أن شيرين على حق. فدفنت رأسها خلف الستار البرتقالي الفاقع، ودفعت بأفكارها عنه إلى مؤخرة رأسها عنوة..وأخذت تفكر في ميادة ووجهها الصبوح، قائلة لنفسها في أسى:

- لم تكن تستحق..

***

-43-

ثلاثة احتمالات

بث الظهور المفاجئ للمقدم عاصم الارتباك في أجواء قسم المنيا. احتواه هو سريعًا بأن قام بتعريف نفسه للضابط المكلف بالتحقيق في العثور على جثة الفتاة، ثم انتحى به جانبًا يتهامسان ممَّا جعل فضول الفتاتين يشتعل.

انتهى من حديثه مع الضابط سريعًا، فاقترب من ندى قائلًا:

- شكرًا لرسالتك.

رمقتها شيرين بنظرة دهشة سرعان ما انقلبت إلى حنق حينما رأت ابتسامتها الخجلة.

خرج الثلاثي من القسم لا يلوون على شيء. بدأ عاصم مناقشة ملابسات القضية بسؤاله:

- كيف عرفتما بأمر الفتاة؟

حكت له ندى عن مكالمة هيما، ثم الخبر المنشور في الجريدة، والذي انتشر بعدها على صفحات التواصل الاجتماعي. حدسها أخبرها بأن الجثمان للفتاة المختفية، وقد صح ما توقعت. سألته ندى:

- ماذا قال الضابط؟

- يميل لفرضية الانتحار.

ظهر الرفض على وجه ندى وهي تقول:

- لا توجد أي بواعث أو دلائل على الانتحار.

- هو يفترض أنها كانت على علاقة بشاب ما، وأنه خذلها فانتحرت. ويستدل على ذلك بما أشار إليه الجميع عن بالها المشغول خاصة وأن...

قاطعته شيرين فجأة:

- ماذا عن المال؟

- أي مال؟

سأل عاصم وهو ينقل نظراته بين الفتاتين مدهوشًا. التمعت عينا ندى وخبطت جبهتها بكفها قائلة:

- هذا هو الخيط الذي يجب أن نقتفي أثره.

***

بعد قليل، انضم هيما إلى الثلاثي في جلستهم المطلة على النيل. ظهر الحذر في عينيه وهو يرمق الوافد الجديد في وجل. طمأنته شيرين وهي تعرفه قائلة:

- هذا هو المقدم عاصم، هو هنا كي يساعدنا في اكتشاف ما حدث لميادة.

ازدرد الصبي ريقه وأومأ برأسه وقد خفَّ الحذر قليلًا في عينيه. سأله عاصم متلطفًا:

- ماذا تشرب؟

لم يُجب الصبي على الفور وظهر عليه التردد، فنادى عاصم عامل التقديم وقال:

- أحضر لهيما أفضل مشروب لديكم.

انبرى الصبي يقول سريعًا:

- زبادي فواكه خلاط.

أومأ العامل برأسه وابتعد، بينما ظهرت أريحية محببة على ملامح الصبي فانتهزت شيرين الفرصة لتسأله:

- أريد أن أسألك، لقد قُلت إن ميادة كانت تتوقع مبلغًا كبيرًا من المال، ألم تقُل ممَّن؟

حرَّك الصبي رأسه يمينًا ويسارًا في بطء، فعادت تسأله:

- ولا قالت لك عن السبب؟

استمر الصبي في النفي، فسألته ندى:

- ما الذي قالته لك بالضبط عن المال؟

- ميادة لم تقُل لي شيئًا عن المال.

ظهرت المفاجأة على وجه الثلاثة الكبار وهم يرمقون الصبي بنظراتهم حتى بدا عليه الارتباك. وجَّه عاصم نظرة يشوبها الشك إلى شيرين، لكنها عادت تقول للصبي في إصرار مغلف باللطف:

- هيما، لقد أخبرتني عن المال الذي تنتظره ميادة، ألم تفعل؟

أومأ الصبي برأسه إلى الأسفل، فعاجلته شيرين:

- كيف عرفت ذلك؟

- سمعتها تطلب أشياء من أم صبحي، وتعدها بالدفع في خلال أيام.

تدافعت الأسئلة من أفواه ثلاثتهم:

- مَن هي أم صبحي؟

- ما هي الأشياء؟

- ماذا قالت بالضبط؟

أخذ الصبي ينقل نظراته بينهم محتارًا. أشارت لهما شيرين

من طرف خفي، وأعادت عليه الأسئلة بنبرة هادئة فأجابها:

- أم صبحي هي السيدة التي تشتري منها فتيات البلدة أشياء جميلة بالتقسيط. هي تبيع فقط للفتيات اللاتي تعملن بانتظام، مثل ميادة أختي.

- هل اعتادت ميادة الشراء منها؟

- أشياء كثيرة. ملابس على الموضة، أدوات تجميل، إكسسوارات للهاتف.

- ما الذي اختلف هذه المرة؟

قرَّب الصبي رأسه منهم كأنه يُفشي بسر:

- ميادة طلبت من أم صبحي هاتف «آيفون».

ثم رفع رأسه كي يرى أثر المفاجأة على وجوههم، قبل أن يُكمل:

- رفضت أم صبحي في البداية قائلة إن ميادة لن تقدر على ثمنه، ولكن ميادة طمأنتها أنها تنتظر نقودًا ستصلها خلال يومين على الأكثر. وحينما لم تصدقها أم صبحي، أخبرتها عنكما وبأنها قدمت لكما خدمات مهمة في مقابل خمسة آلاف جنيه ستستلمها في خلال يومين، ستدفع منها نصف ثمنه، والباقي ستدفعه على أقساط شهرية. ثم أوصتها ألا

تُخبر أحدًا، ولكنني سمعتها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- اختفت.

قالها هيما، ثم رفع عينيه وسرح بهما في النيل، وترقرقت دمعة.

احترم الثلاثة صمت الصبي، إلا أنه قطع صمته بعد لحظات ليُشير إلى بقعة بعيدة على امتداد الشاطئ قائلًا:

- لقد وجدوها هناك.

انتابت ندى قشعريرة مفاجئة، بينما قامت شيرين لتنظر حيث أشار الصبي، ثم سألته:

- هل تظن أنها انتحرت كما قالوا؟

- مستحيل. ميادة كانت لديها أحلام وخطط. صحيح كانت مشغولة البال وسرحانة مؤخرًا، ولكن ذلك كان بسبب العمل معكما.

صمتت الفتاتان فسألهما هيما:

- ألم تكن تعمل معكما؟

احتارت شيرين بماذا تجيبه، ثم فضَّلت إخباره بالحقيقة:

- لا يا هيما، لم تكن تعمل معنا، ولم نعدها بأية أموال، هل..

قاطعتها ندى هاتفة:

- شيرين هل تذكرين العبارة التي ختمت بها مكالمتنا الأخيرة معها.

ضيقت شيرين عينيها محاولة التذكر فأردفت ندى:

- ألم تعدنا بالبحث وراء عم حامد؟

- عم حامد!

هتف هيما وقد انكمش على نفسه فجأة بصورة لم تخطئها عين عاصم فسأله:

- هل تعرفه؟

- مَن الذي لا يعرف عم حامد؟ رجل شرَّاني، لا يقدر عليه أحد.

- هل تظنه تعرَّض لميادة بسوء؟

- لقد تعرَّض للكثيرين بالسوء لأسباب تافهة. إن علم أن ميادة تتعاون مع الشرطة للإيقاع به لن يتردد في التخلص منها على الفور.

قالها الصبي بنبرة مرتاعة بثت التوتر في الجالسين، ثم

استدرك قائلًا:

- ولكن عم حامد مختفٍ، لم يرَه أحد في البلد منذ فترة. ثم من أين له أن يعرف بما تفعله ميادة؟

- ربما سألت عليه أحدًا فأخبره..

- ميادة ليست عبيطة، هي تعرف شرَّه جيدًا.

- إذن فكر يا هيما، كانت على اتصال بمَن غيرنا؟

- لا أحد.. كانت تذهب للتنظيف عند الحاجة زينب، وبيوت أخرى، و..

تردد الفتى، صمتوا جميعًا بانتظار ما سيقول:

- وكانت تقضي وقتًا طويلًا على هاتفها.

- ألم تكن تفعل ذلك من قبل؟

- بلى، ولكن في الأيام الأخيرة ازداد الأمر، بدا وكأنها تبحث عن شيءٍ ما أو تحاول الوصول لأحدهم. كنت أسمع صوت «الماسنجر» يرن ثم لا يأتيها رد. وبعد إحدى المحاولات هتفت فجأة: إنه فرق التوقيت.

- فرق التوقيت! أي بلد تقصد؟

- لم تقُل.

صمتوا جميعًا وأخذوا يرتشفون مشروباتهم في شرود عدا ندى. كان الوقت قد اقترب من المغرب، وقلّت الحرارة كثيرًا. انتابتها قشعريرة برد مفاجئة وهي تراقب النيل السرمدي العظيم..

صفحة وجهه الهادئة وأمواجه الوديعة التي تكسرت على شاطئه في خجل، لم تنبئ أبدًا بما تخفيه تحت طياتها من تيارات عنيفة غادرة، تيارات سحبت الفتاة المغدورة وأودت بحياتها. بدا وكأن النيل اتخذها عروسًا له وقربانًا للحقيقة، فما باله بلعها في جوفه ثم لفظها، ولم يلفظ لهم الحقيقة!

***

استحوذ النيل على انتباه ندى كليًا حتى كاد أن ينوِّمها مغناطيسيًا بأمواجه الناعسة التي ترتطم وتتكسر برتابة وتكرار، وأشرعة مراكبه البيضاء التي تنساب في الأفق بأريحية وبهاء.

نفضت الفتاة عنها شرودها والخدر الذي كان يغزو أطرافها وقالت لنفسها: ثلاثة احتمالات لا رابع لها؛ إما الانتحار، وهو الاحتمال الذي ترفضه. لقد عرفت الفتاة وتجاذبت معها أطراف الحديث لساعات. لم تكن من النوع الذي ينتحر، فلم تكن منطوية أو حزينة أو معتلة المزاج، بل كانت مقبلة على الحياة تسبقها ضحكاتها وخفة دمها.

الاحتمال الثاني كان الوقوع في النيل قضاءً وقدرًا، سألت هيما:

- هل تظنها انزلقت غصبًا عنها؟

نفى الصبي هذا الاحتمال في إصرار:

- لا يمكن. ميادة تعرف المكان جيدًا، وهي ليست عبيطة كي تقف على المنطقة الزلقة، ثم إنها تجيد العوم، والمياه هناك ضحلة وساكنة، و..

قاطعته شيرين:

- إلا إذا دسّ لها أحدهم مهدئًا أو مخدرًا!

فهم عاصم ما ترمي إليه فأجابها:

- إذا كان قد دسّ لها أحدهم مادة مخدرة في مشروب أو قطعة حلوى، ستفقد توازنها بسهولة، أو بدفعة بسيطة، لتسقط في النيل، ثم لا تسعفها قدرتها على العوم في الخروج من المياه. هذه نقطة سيحسمها تقرير الطب الشرعي بسهولة فور صدوره. إن كان هناك مَن دسّ لها مادة مخدرة سنعرف.

ألمحت عباراتهم الأخيرة إلى الاحتمال الثالث الذي لم تُرد ندى أن تُفصح عنه أمام الصبي.

القتل..

***

-44-

جريمة منفصلة؟

أصر عاصم على أن تركب الفتاتان معه في السيارة بدلًا من القطار للعودة إلى القاهرة. قال إنه يريد بحث تفاصيل القضية معهما، فمعرفتهما بميادة ستُنير له الطريق حسب قوله. كان الظلام قد أسدل أستاره، والسيارة تنهب طريق الرجوع حينما بدأ عاصم بالكلام:

- تشكان بمقتل الفتاة. وأنا مثلكما.

- ولكن مَن فعلها؟

سألته ندى.

- لدينا العديد من المشتبه بهم.

اقترحت ندى:

- هل عرف عم حامد أنها تحوم حوله فأراد أن يُسكتها. فآخر مكالمة بيننا وعدتنا أن تسأل عنه هو وابنته.

ذكرتهما شيرين قائلة:

- لا تنسيا النقود. خمسة آلاف جنيه ليست بالمبلغ الهيِّن، تُرى كانت مقابل ماذا؟

أجابها عاصم:

- أغلب الظن أنها ابتزاز.

- عم حامد؟

أجاب عاصم بحسم:

- مثله لن يعرض المال، بل سينهي حياتها على الفور بلا تفاوض.

- ربما اختلقت مسألة النقود للحصول على الهاتف الحديث من أم صبحي.

- لا أظن، من كلام هيما فالفتاة كانت منتظمة في الطلب والدفع، والسيدة لم تكن لتعطيها الهاتف دون أن تسدد لها نصف ثمنه مقدمًا كما وعدت.

سألت شيرين:

- لقد ذكر هيما شيئًا عن فرق التوقيت. ماذا كان يقصد؟

- هذا خيط هام. فرق التوقيت يعني شخصًا يعيش في بلدٍ آخر.

- البرتغال مثلًا؟

- فيمَن تفكرين؟

- غالب..

- أو إيلينا.

تفكر عاصم هنيهة ثم سأل:

- هل ألمحت لكما ميادة عن عزمها على التواصل معهما؟

- لا..

أجابته ندى ثم أردفت:

- ولكن ربما خطر لها خاطر فأرادت أن تسأل عنه أحدهما.

عقبت شيرين قائلة:

- كانت ميادة تشك في الزوجة الروسية.

اهتم عاصم بذلك الخيط فاعتدل نحو شيرين يسألها:

- إيلينا؟ هل أنتِ متأكدة؟

- نعم، ألمحت بوجود علاقة بين إيلينا وأمير، خاصة أنهما عملا معًا لفترة في دبي.

- لا يمكن لتلك المرأة الروسية أن تقتل أمير، لقد تطلّب الأمر قوة بدنية لتهشيم جمجمته بهذا الشكل.

- ونجيَّة؟

- أعلم أنكِ تميلين لبراءتها، ولكن الواقع يقول إن نجيَّة لها بنية قوية، ونوبة جنون لحظية كفيلة بمضاعفة قوتها ومدها بالشراسة اللازمة. أما إيلينا فكما رأيتِ في الصور لها بنية دقيقة رقيقة.

- الأجانب يهتمون بالرياضة والتمارين اليومية.

- إما نجيَّة، وإما رجل، أما تلك الفراشة الرقيقة فلا يمكنها أن تقتل بهذه الوحشية أبدًا.

أجابته ندى بحدة فاجأته:

- الفراشة لا يمكن أن تقتل، أما نجيَّة فتقتل عادي.

اندهش عاصم لرد فعل ندى وقال بنبرة حائرة:

- هذا ما أفاده تقرير الطب الشرعي. لا علاقة لرأيي الشخصي بالموضوع.

- وما هو رأيك الشخصي؟

صمت عاصم قبل أن يقول بحذر:

- أنا حقًّا متأثر بقناعتكِ ببراءة نجيَّة، وإن لم أجد مبررًا منطقيًّا لذلك.

- شيء تملكه المرأة يُسمى الحدس.

- مع احترامي، ذلك لا يُقنع المحكمة ولا يُعتد به كدليل. إما أن تجدي دليلًا قاطعًا يبرئ نجيَّة، وإما أن تستسلمي.

هتفت شيرين فجأة:

- وهل قتلت نجيَّة ميادة أيضًا؟

قطَّب عاصم بين حاجبيه فعاجلته قائلة:

- مَن قتل ميادة فعلها كي يُغطي على جريمته الأولى. مَن قتل ميادة هو قاتل أمير. ولا يمكن أن تكون نجيَّة قتلتها وهي مودعة في المستشفى. الجريمتان متصلتان ولا ريب. ولكن بقي أن نجد الخيط الذي يدل على القاتل.

أجابها بهدوء:

- إلا إذا كانت جريمة قتل ميادة هي جريمة منفصلة لأسباب أخرى. لا يمكننا الربط بين الجريمتين بشكل قاطع دون دليل وإلا سيؤثر ذلك على طريقة تفكيرنا وتحليلنا للمعلومات، يجب أن نتعامل على أن الجريمتين منفصلتان حتى يَثبُت العكس.

قاطعت شيرين سجالهما:

- ندى..

نظرت إليها ندى متسائلة فأردفت بنبرة مترددة:

- نجيَّة قد تكون قتلت ميادة أيضًا.

هتف عاصم وندى في صوتٍ واحد:

- كيف!

تنحنحت شيرين قائلة:

- ألم تختفِ نجيَّة من المستشفى ليلة كاملة؟

بهتت ندى وهي تجيب:

- صحيح.. ولكنهم وجدوها في الصباح.. كانت مختبئة في إحدى غرف المستشفى.

هتف عاصم في عصبية:

- كيف لم يخبرني أحد بذلك؟ ماذا حدث؟ ومتى؟

أخبرته ندى بما حدث كما أخبرها الطبيب. زفر عاصم في حنق قائلًا:

- يجب إجراء تحقيق شامل في الأمر. قد تكون أشعلت الحريق كي تهرب من الغرفة وتنفذ جريمتها.

ردت ندى بنبرة ضعيفة:

- ولكنها لم تخرج من المستشفى.

- ما أدراك؟ لعل هناك مَن ساعدها في الخروج لليلة واحدة ثم سهَّل لها الدخول ثانية قبل الصباح.

- مثل مَن؟

- أحد أفراد التمريض مثلًا..

قفزت إلى مخيلة ندى صورة الممرضة المسئولة عن نجيَّة. لطفها ورفقها بها.. التناغم الذي بدا واضحًا بينهما.. هل ساعدتها في الهروب؟ ولكنها لطمتها كي تهرب.. أم كانت تمثيلية!

قالت ندى وهي على وشك البكاء:

- نجيَّة قليلة الحيلة، كيف ستُخطط لكل هذا؟

تنحنحت شيرين قائلة:

- نجيَّة التي كتبت الأوراق لم تكن قليلة الحيلة يا ندى، بل كانت تمتلك ذهنًا متيقظًا. كما أن اختلاسها القداحة وإخفاءها حتى اللحظة المناسبة لإشعال الحريق ينم عن عقلية ذات دهاء وقدرة على التخطيط.

حاولت ندى ربط كلامهما بصورة نجيَّة الوادعة فلم تتمكن. اختنقت بعبراتها فكفت عن الجدال وألصقت وجهها بالنافذة مستسلمة، تنساب دموعها في صمت.

***

-45-

عيناها!

جلست ندى على فراشها تفكر في ما آل إليه اليوم..

توقفت السيارة أمام البناية التي تقطن بها الفتاتان. أسرعت شيرين نحو المدخل دون أن تنتظر أختها. اغتاظت ندى، فهي لم تكُن تريد التحدث مع عاصم ثانية، حتى لو كانت بضع كلمات شكر سريعة تُنهي بها اللقاء.

ولم تكُن بالطبع تتوقع أن يمتد الأمر لأبعد من ذلك.

فهل توقعت شيرين؟

ترجَّلت ندى من السيارة وألقت بكلمات شكر مقتضبة على عاصم وهي تسرع للحاق بأختها فترجَّل هو الآخر ولحق بها بخطواته الواسعة. وعلى درجات المدخل ناداها:

- ندى..

نطق اسمها بنبرة استوقفتها رغمًا عنها.

تعالت دقات قلبها. التفتت إليه. مستندًا بظهره إلى حائط المدخل، يُكلل الإجهاد ملامحه وقد غارت عيناه وسكن السواد أسفل منهما.

رنت إليه، فثبَّت عينيه في عينيها.

لا تحب ذلك. الاضطراب يتصاعد ويحتل أحشاءها.

خطت للأمام تحاول الهروب. عاجلها:

- أريد أن أسألك.

توقفت.

- لماذا أنتِ مؤمنة ببراءة نجيَّة بهذا القدر؟

أُسقط في يدها!

مهما كان السؤال الذي توقعته، لم يكُن ذاك السؤال.

لم تفهم لماذا يشغله ويؤرقه رأيها في الأمر. هي نفسها لم تدرِ السر وراء يقينها ببراءة السيدة الطيبة برغم كل ما قيل. أهي المخطئة في حكمها وحدسها؟

تمهلت في الرد.. أغمضت عينيها وتفكَّرت..

طالعتها العينان الواسعتان لنجيَّة الطفلة من صورتها الفوتوغرافية. تلكما العينان اللتان كانتا تحويان الحب، والأمل، والحياة.

هاتان العينان كانتا صك براءتها.. لمَن كان له قلب..

أم إنها..

***

ظل عاصم يفكر طيلة الطريق إلى بيته في إجابة ندى الغامضة:

«عيناها..»

ما علاقة عيني المتهمة بأي شيء!

غريب أمر تلك الفتاة الحالمة، تدهشه بطريقة تفكيرها ومفرداتها. تفاجئه دومًا بردٍّ هو الأبعد عن طريقة تفكيره ومنهجه في الحياة.

نظرتها ورؤيتها للأمور مختلفة.

وهذا الاختلاف.. هذا الاختلاف يحيره.. يجذبه.. كما يتجاذب قطبا المغناطيس في إصرار.

ليس اختلافًا مزعجًا. بل هو اختلاف... مكمل!

«you complete me»

أين سمع تلك العبارة من قبل؟ ولماذا تبزغ له الآن وهو على شفا الزواج من أخرى مقتنع بها تمام الاقتناع.

نفض ندى عن ذهنه بعينيها الذهبيتين الصادقتين المشرقتين، وذكّر نفسه بأن أفكاره هذه هي عين الوساوس

التي تسيطر على المرء على أعتاب زواجه. الوساوس التي سبق وحذرته منها والدته حينما لم تلمس منه الحماس الكافي لمشاركة خطيبته إجراءات الأيام الأخيرة من تفاصيل الزفاف.

«والدك كان مثلك. بل ليس وحده، كل الرجال يتملكهم التوتر باقتراب موعد الزفاف ويبدأون بالتشكك في اختياراتهم، بداية من العروس وحتى قميص الفرح».

قالتها ضاحكة ثم ربتت كتفه قائلة في تأكيد: «لا تفكر كثيرًا يا بني.. فالخير هو ما اختاره الله».

قنع عاصم بعبارة والدته الحاسمة، ومدد جسده على الفراش وأغمض عينيه، ولكن تبًّا..

«عيناها»!

***

-46-

الحساب المنشود

ثلاثة أيام على الزفاف ولا جديد..

قالتها ندى لنفسها وهي تتفقد التاريخ على هاتفها.

كانت تشعر بملل شديد، فليس لديها تحقيق صحفي جديد تعمل عليه بعد، ولا يوجد أي سبب وجيه آخر على وجه الأرض يجعلها ترفع عنها الغطاء وتخرج من الفراش، خاصة وقلبها يحدثها بأن خيوط القضية قد التفت حول رقبة نجيَّة بالفعل برغم عدم تواصلها مع عاصم مجددًا.

جعلها الملل تتفقد كل حساباتها على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، وترد على جميع الرسائل والتعليقات. نشرت صورة جديدة لها من على ضفاف النيل في المنيا. حصدت الصورة مئات ردود الأفعال من الإعجاب والحب، وعشرات التعليقات المبهجة في دقائق. أجابتها كلها بقلوب ووجوه ضاحكة بينما كان قلبها موجوعًا ووجهها حزينًا.

ثلاثة أيام على الزفاف!

فتحت قسم «الأخرى» من رسائل «الفيسبوك» تزجي بتفقدها الوقت..

اعتادت أن تجد فيه رسائل عجيبة من أشخاص لا تعرفهم يحاولون عرض صداقتهم عليها بعبارات أكل عليها الزمن والشرب، وحينما لا تجيبهم يسبونها بألفاظ يعاقب عليها القانون!

كانت تلجأ لرسائل «الأخرى» حينما يكتنفها الملل وتشعر بالرغبة في التسلية والضحك.

ولكن هذه المرة لم يكن الضحك بانتظارها..

بل كانت الصدمة!

***

دق قلب ندى سريعًا وهي تجد أمام عينيها الدليل الدامغ على أن الجريمتين متصلتان، وأن ميادة قد قُتلت لسبب يتعلق بمقتل أمير، أو على الأقل لسبب يتعلق بأفراد تلك العائلة.

***

- شيرين.. شيرين.. استيقظي.

أخذت ندى تهز أختها بعنف حتى كادت توقعها من على الفراش. استيقظت شيرين مفزوعة فحاولت ندى أن تهدئ من روعها:

- أنا آسفة ولكن.. ميادة.

اعتدلت شيرين في الفراش وفركت عينيها وهي تهتف:

- ميادة؟! ما لها؟

أخذت ندى نفسًا عميقًا ثم وضعت هاتفها أمام عيني شيرين، وهي تقول:

- أرسلت لي قبل وفاتها.

قرأت شيرين المكتوب على الشاشة سريعًا، ثم تفقدت حساب المُرسل لكي تتأكد أنه للفتاة المغدورة، ثم رفعت رأسها لندى وهي تقول في حيرة:

- لا أفهم. ماذا كانت تعني؟

أخذت ندى منها الهاتف وسحبتها من يدها قائلة:

- اغسلي وجهكِ وسأقوم بعمل كوبين من الشاي لنُعيد قراءة الرسائل ونقوم بتحليلها.

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول بصوت مفعم بالأمل:

- كم أنت كريم يا رب!

***

بعد لحظات تحلَّقت الفتاتان حول كوبين من الشاي وورقة طبعتها ندى بها رسائل ميادة. بدأت شيرين بالقراءة:

«آنسة ندى.. أحاول الوصول للآنسة شيرين ولكن هاتفها غير متاح، وللأسف ليس لديَّ رقم هاتفك»

عقبت ندى:

- انظري للتاريخ، كان ذلك حينما ذهبتِ في رحلتكِ الطويلة، لم يكُن هاتفكِ متاحًا.

«أريد أن أخبركِ بشيءٍ غريبٍ لاحظته في صور الإنستجرام»

- عن أي صور تتكلم؟

سألت ندى في حيرة، فرفعت شيرين كتفيها وخفضتهما ثم أكملت بالقراءة:

«آنسة ندى، آسفة أني شغلتك. اتضح أن الأمر لا يهم ولكنني لم أستطع مسح رسائلي إليكِ. سلِّمي لي على الآنسة شيرين»!

- انظري إلى تاريخ رسالتها الأخيرة، بعد الأولى بيومين.

- غريبة!

- ما العمل الآن؟

- يجب أن نكتشف ما هي الصور التي تقصدها، وما الذي لاحظته فيها.

قالتها ندى ثم أضافت مترددة:

- قلبي يحدثني بأن ما لاحظته في تلك الصور هو ما كلفها حياتها.

وضعت شيرين كفها على كتف أختها قائلة:

- أصدق قلبك.

ثم عاجلتها باسمة:

- لا تعتادي على ذلك..

أَفَلَت ابتسامتها سريعًا وهي ترى القلق الذي صبغ ملامح أختها. فقالت:

- سأقوم بتفقُّد حساب الفتاة على «الإنستجرام».

- وأنا أيضًا، لعلنا نجد شيئًا.

ثم رفعت رأسها سائلة:

- أتظنين أن رسائل ميادة تُبعد الشبهات عن نجيَّة؟

ابتسمت شيرين، وهي تقول:

- لنرى.

انهمكت الفتاتان في تفقُّد صفحة الفتاة وصورها ولكنهما بعد أقل من ساعة رفعتا الراية البيضاء. لم يسفر البحث عن شيءٍ أبدًا، فميادة لم تكن نشطة على حسابها، لم يزد الأمر على بضعة صور رديئة الجودة للفتاة ومن خلفها النيل. قامت شيرين بالتدقيق في الصور بعد تكبيرها، والبحث وراء كل تفصيل محتمل، ولكنها خرجت من هذه العملية صفر اليدين.

رفعت شيرين عينيها إلى أختها في يأس، فوجدت مثيله باديًا على ملامحها، ممتزجًا بالحزن. تأملت ندى صورة لميادة بوجهها البشوش الضاحك وذيل حصانها المتطاير خلفها وأشعة الشمس تنعكس على وجهها وتتكسر على صفحة النيل من ورائها في مشهد بهي.

كل صور الفتاة كانت بجوار النيل، كانت تحبه، ولكنه غدر بها. أم إنه كان رحيمًا بها حينما التقمها في جوفه بعد أن دفعتها يد الغدر إلى أعماقه؟

ازداد إصرار ندى للوصول للفاعل، فلم تلبث أن قالت في تصميم:

- لن أستسلم، سأقول دعاء «الضالة» وسنجد ما نبحث عنه.

لم تستطع شيرين كتمان ضحكتها من يقين أختها الطفولي. راقبتها وهي تبتهل إلى الله مكررة الدعاء عدة مرات. ثم انتظرت ما سيُسفر عنه بحثها الجديد. بعد أقل من خمس دقائق هتفت ندى:

- وجدتها!

ظنت شيرين أن أختها تسخر منها فقرَّبت رأسها كي ترى ما وجدته ندى، إلا أن ندى صححت لها ظنها قائلة:

- لم أجد شيئًا هنا، بل هنا.

وأشارت لرأسها ثم أردفت:

- ألا تذكرين متى تكلمت ميادة رحمها الله عن الإنستجرام.

أجابتها شيرين بنظرة حائرة فأكملت ندى في حماس:

- ألم تُخبرنا عن صور أمير على حساب إيلينا.

- نعم نعم هذا صحيح.

قالتها شيرين وقد عادت لها ذكرى الحديث دفعة واحدة.

- فلنبحث عن حساب إيلينا، ربما هو المقصود.

- سنجد حساب إيلينا من ضمن الصفحات التي تتابعها ميادة.

وبرغم الحماس الذي كان يكتنف الفتاتين للعثور على حساب إيلينا، إلا أنهما وبعد قليل من البحث اكتشفتا أن ميادة تتابع 1022 حسابًا على الإنستجرام. أغلبها لمطربين شعبيين وفنانات شهيرات بالإضافة لعشرات من صفحات خبراء الموضة والتجميل، بدءًا من هاني البحيري ووصولًا إلى «وردة المنيا المزهرة».

لم يحبط هذا الفتاتين فظلتا على مدار عدة ساعات تتفقدان كل حساب..

وفي النهاية، وقعتا على الحساب المنشود. حساب إيلينا..

***

-47-

اللغز الكامن في الصور

تصاعدت دقات قلبَي الفتاتين وهما تقلبان في حساب إيلينا وتتفقدان الصور.

أغلب الصور كانت لإيلينا وحدها، وكان من الواضح أنها تقضي أوقاتًا سعيدة، وحريصة على تسجيلها من خلال الصور، وتظهر من ورائها الطبيعة الخلابة للبرتغال.

عادت ندى عدة سنوات إلى الوراء في الحساب. الصور الأولى كانت تعود لعام 2015، ظهرت فيها إيلينا بملامح أصغر وكانت ما زالت في بلدها روسيا.

- شيرين انظري! إيلينا كانت تعمل بدق الوشوم في بلدها قبل أن تسافر إلى دبي.

- أتكون هي مَن دقَّت الوشم لأمير؟ لقد كان دقيقًا ومميزًا للغاية.

- ربما..

استمرت ندى في تصفح صور إيلينا. لاحظت أن صورها التي التُقطت في الإمارات كانت تحوي آخرين معها، غالب أو

أمير أو الاثنين. وبالنظر للتاريخ، رأت أن صور إيلينا وحدها قد بدأت بعد تاريخ سفرها مع غالب إلى البرتغال، فهل يعني ذلك أن الشقاق قد دبَّ بينهما؟ أفضت بشكوكها إلى شيرين فأجابتها:

- أنتِ محقة في مشاهداتكِ لا استنتاجك، إن كان الشقاق قد دب، فالأولى بغالب أن يلجأ لوالدته ويزيد من وتيرة اتصاله بها.

- ربما كان يخشى لومها على زيجته التي لم تكن راضية عنها.

- لست قانعة بهذا التفسير، فلنستمر في البحث.

بعد لحظات، هتفت شيرين في حماس:

- ندى.. هذه الصورة، انظري!

نظرت ندى فوجدت صورة «سيلفي» عادية لإيلينا بلباس بحر من قطعتين على شاطئ ما بتاريخ يعود لقرابة شهر سابق. ويظهر في خلفية الصورة آخرون ممددون على الرمال بخلاف السابحين وسط المياه.

- الصورة ليس بها أي شيءٍ لافت للنظر.

- ولكن يجب أن يكون بها شيء.

قالتها شيرين بإصرار مشوب بالحيرة فرفعت ندى رأسها غير فاهمة.. أشارت لها أختها نحو أيقونة الإعجاب فأدركت ندى على الفور أهمية الصورة..

لقد أُعجبت بها ميادة!

قالت شيرين:

- حاولي اكتشاف ما الذي جعل ميادة تختص هذه الصورة بإعجابها. وأنا سأواصل بحثي في بقية الصور.

أومأت ندى برأسها. أرسلت لنفسها الصورة على البريد الإلكتروني، ثم حمَّلتها على حاسبها اللوحي وأدخلتها على برنامج «الفوتوشوب» فقامت بتكبيرها، ثم تحسين جودتها وزيادة حدتها. ثم طبعتها وبدأت تتأملها.

بعد هنيهة، قرَّبت الصورة من شيرين وهي تقول:

- هذا الرجل النائم على الشاطئ في الخلفية.. أظنه غالب.

تمعَّنت شيرين في الصورة ثم قالت:

- إنه هو، ما الذي يميز هذه الصورة عن غيرها؟ لقد ظهر غالب في الكثير من الصور. بل هناك صور أخرى يظهر فيها أكثر وضوحًا وقربًا.

أقرَّت ندى ملاحظة شيرين. لوت شفتيها وهي تمرر نظرها

بدقة على كل عنصر من عناصر الصورة. تذكَّرت كم كانت ماهرة في لعبة «البحث عن فضولي» سابقًا، فهل ستنجح في إيجاد عنصر الصورة المفقود؟

بعد قليل أرسلت لها شيرين صورة أخرى قائلة:

- اطبعي هذه أيضًا، الصورة الثانية التي تحظى بإعجاب ميادة.

***

بعد سويعات من البحث أعلنت شيرين أن ميادة تفاعلت بضغطة إعجاب مع صورتين فقط من بين عشرات الصور على حساب إيلينا.

ما الذي استرعى انتباهها فيهما؟ أهي الصور التي ذكرتها في رسائلها لندى؟ والسؤال الأهم: هل لهذه الصور علاقة بموتها، أو على الأصح: مقتلها!

الصورة الثانية كانت لإيلينا وأمامية أيضًا، ومن ورائها تظهر مائدة طويلة ممتلئة بأصناف مأكولات بحرية مختلفة فيما بدا وكأنها «بوفيه» مفتوح بأحد الفنادق.

بالتدقيق في عناصر خلفية الصورة والأشخاص الذين ظهروا بها، اتضح أن غالب موجود فيها أيضًا، ولكن بمشهد

جانبي، كان واقفًا أمام المائدة الطويلة وبيده طبق استقرت عليه كومة جمبري وكومة محار وبجوار الكومتين استقر ذيل «إستاكوزا» ضخم، وقد وضع غالب إصبعين من أصابعه في فمه ليلعق ما بهما.

وضعت ندى الصورتين المكبرتين المطبوعتين جنبًا إلى جنب، وقالت:

- من الواضح أن ظهور غالب في الصورتين لم يكُن متعمدًّا. إيلينا كانت تلتقط صورة لنفسها وهو ظهر في الخلفية بالصدفة.

- هل هذا ما استرعى انتباه ميادة؟

- هناك صور أخرى بنفس الكيفية، بل إن أغلب صور إيلينا الأخيرة لا يظهر فيها غالب سوى في الخلفية وبشكلٍ غير مُتعمَّد.

- إذن ما الشيء الغريب الذي ذكرته ميادة في رسالتها؟

- لاحظي ملابس إيلينا في الصور، تبدو كلها جديدة ومثيرة وكأنها..

- تقضي شهر عسل جديدًا!

قالتها ندى والتقت نظرتها مع نظرة أختها في تأكيد.

- انظري، في كل الصور يرتدي غالب قمصانًا ذات أكمام طويلة.

- صورة الشاطئ هي الوحيدة التي ثنى فيها كُمَّي قميصه حتى منتصف ساعده.

- وما الذي نستنتجه من ذلك؟

- لست أدري..

قالتها ندى بحيرة إزاء اللغز الكامن في الصور.

***

-48-

الجمبري

استيقظت شيرين في صباح اليوم التالي لتجد ندى جالسة على فراشها ممسكة بمنديل تقوم بليه وفركه بين أصابعها بحركة تكرارية وبصرها شاخص في سقف الغرفة بشرود.

«باقٍ من الزمن يومان على الزفاف»

لم تقُلها ندى، ولكن شيرين قرأتها في سكناتها وخلجاتها. كانت قلقة على أختها، ومغتاظة من الضابط الذي اقتحم حياتها وأورثها قلقًا ومشاعر غامضة لم تكُن معتادة عليها.

أم ندى هي مَن اقتحمت حياته؟ لا يهم. المهم أن تنتشل أختها من حيرتها وضيقها.

- هل أُخبر عاصم عن الصور؟

سألت ندى، فدق ناقوس الخطر في عقل شيرين. اتصالها به لن يجلب سوى المزيد من الألم. لو فقط يمر هذان اليومان ويتم الزفاف. هي واثقة أن أختها ستتحرر منه وتنطلق صوب أفق أرحب وتلتقي بمَن يُقدرها ويُسعدها ويَسعد معها.

- لا، لن تخبري عاصم. سنسافر نحن إلى المنيا.

ألقت شيرين بعبارتها دونما تفكير أو تخطيط، جُل همها كان إبعاد ندى وشغلها حتى تمر الثماني والأربعون ساعة على خير.

- وماذا سنفعل هناك؟

- سنعرض الصور على هيما، ربما يلحظ فيها شيئًا. وقد نعرضها أيضًا على غالية والحاجة زينب.

- ولكن الحاجة زينب كفيفة.

- غالية ستقوم بالغرض، هيًّا ارتدي ملابسكِ حتى نلحق بالقطار.

نجحت خطة شيرين.. دبَّت حماسة صبيانية في ندى فقامت من فورها لتستعد للسفر حينما وردها اتصال من خالها:

- ندى أين أنت؟ لديَّ تقرير صحفي لك.

تصاعدت إثارة ندى وهي تسأله:

- حقًّا؟ عن ماذا؟

- الفنانة نجوى شلبي تزوجت للمرة السابعة من فتى يصغرها بعشرين عامًا على الأقل، نريد منكِ أن..

قاطعته ندى بنبرة باردة:

- فيما بعد يا أستاذ مجدي.

أدرك حينما نادته بالأستاذ بدلًا من «خالي» أن عنوان التقرير أحبطها كما توقع، بينما أضافت هي بلهجة قاطعة:

- أنا الآن في طريقي إلى المنيا لاستكمال تقرير نجيَّة.

قالتها وأنهت المكالمة قبل أن يتسنى لخالها ورئيس تحريرها الاعتراض.

ابتسمت شيرين للحسم الوليد الذي بدا من أختها. انطلقت الفتاتان نحو محطة مصر، وفي غضون ساعات قليلة كانتا جالستين مع هيما على النيل تعرضان عليه الصورتين اللغز.

- لا شيء.

- متأكد؟

أمعن الصبي النظر ثانية ثم أكد:

- لا شيء على الإطلاق.

تبادلت الفتاتان نظرات الإحباط، فشعر الفتى بأنه خذلهما. طمأنته شيرين قائلة:

- لا بأس سنستمر بالبحث ولن نيأس.

***

بعد قليل تكرر المشهد في غرفة صالون الحاجة زينب. جلست الفتاتان على ذات الأريكة الضخمة المذهبة، وأمامهما الحاجة وقد ازدادت نحولًا، بينما ظهرت على وجه غالية ملامح عدم الترحيب.

حاولت شيرين كسر الجليد بقولها:

- كيف حال صحتكِ يا حاجة؟

- صحتي في النازل يا بنتي. أشتاق لابني ولا أجده.

- ماما.

هتفت غالية في حنق، ثم نظرت لضيفتيها مفسرة:

- ماما غير مدركة أن منصب غالب الجديد يستغرق كل وقته، ومع فارق التوقيت، لا يستطيع الاتصال بها كل يوم كما عوَّدها أيام عمله في الإمارات.

- بل هو قلبي.. قلبي يحدثني بأن ابني قد أصابه مكروه.

نظرت لها غالية في استنكار ثم هتفت في نفاد صبر:

- لن تكُفّي عن كلماتكِ هذه حتى تتحول إلى نبوءة ويصيبه مكروه بالفعل بسبب فألكِ السيئ.

- بالتأكيد «الحيزبونة» زوجته هي التي تشغله وتمنعه عنّي.

- أنتِ تريدين منه التفرغ لكِ والاتصال بكِ كل يوم وهو مشغول، مشغووووول.

أدركت غالية أنها انفعلت في عبارتها الأخيرة فبررت انفعالها قائلة:

- لا تفتأ تذكر غالب في كل ساعة حتى اختنقت من سيرته وهو أخي الوحيد. لقد دللها بكثرة اتصاله بها سابقًا. أما الآن، ومع مهام منصبه الجديد فلا يتصل بها سوى مرة كل أسبوع.

- عشر دقائق لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

قالتها الأم نائحة وقد تبدّل الموقف بين السيدتين فبدت غالية الآن وكأنها صاحبة الكلمة العُليا بعد أن خارت قوى الأم بشكل ملحوظ.

تبادلت شيرين النظرات مع ندى وقد شعرت بأنهما وقعتا بين شقي الرحى. أنقذتهما غالية بسؤالها:

- شاي بالنعناع؟

بعد لحظات كانت أكواب الشاي بالنعناع بين أيديهما يتصاعد منها البخار والرائحة الزكية. استغلت ندى هدوء الأجواء فأخرجت الصورتين المطبوعتين من حقيبتها

وعرضتهما على غالية قائلة:

- لقد وجدنا هذه الصور على حساب إيلينا، هل تلاحظين بها أي شيء غريب؟

نظرت فيهما غالية نظرة سريعة ثم أعادتهما لندى قائلة:

- لا شيء على الإطلاق، لماذا؟

قربتهما ندى ثانية منها وهي تقول بحذر:

- تعرفين ميادة التي كانت تعمل لديكما..

- الله يرحمها يا حبة عيني.

قالتها الأم مقاطعة، ثم أردفت:

- برغم طمعها وعينها الفارغة، إلا أنها كانت شابة مليحة وصغيرة.. خسارة في الموت.

سألت غالية بنبرة يشوبها الريب:

- ما علاقة ميادة بالصور؟

- لقد أشَّرت عليهما بالإعجاب، وظننا أن..

أخذت غالية الصور من يد ندى ثانية وتمعنت فيها. ندت من فمها صيحة خافتة ثم قفزت من مقعدها كالملسوعة وهرولت إلى الداخل.. ليصلهم صوت إفراغها لمعدتها.

ارتبكت الأم ونادت على ابنتها:

- غالية.. ماذا حدث؟

لم تُجبها ابنتها سوى بمزيدٍ من أصوات القيء والتأوه فسألت الأم بصوتٍ مرتجف:

- ما هذه الصور؟ مَن فيها؟ صفوها لي..

لحقت ندى بالفتاة القابعة بالحمام، بينما بدأت شيرين تصف الصور للأم:

- في الصورة الأولى تظهر إيلينا على شاطئ البحر ومن ورائها غالب ممدد على الرمال مرتديًا سروالًا قصيرًا وقميصًا مشمر الكُمَّين.

هزَّت الأم رأسها في حيرة ثم سألتها:

- والصورة الثانية؟

- إيلينا أمام مائدة عامرة بالمأكولات البحرية ومن خلفها غالب يمسك بطبق مليء بالجمبري ويلحس أصابعه.

مدَّت الأم ذراعيها إلى الأمام وتشبثت بشيرين قائلة بنبرةٍ أقرب للعويل:

- جمبري؟ لا يمكن.

أشارت بإصبع مرتعشة نحو شيرين ترجوها:

- الصورة الأولى، هل قُلتِ إنه قد شمَّر كُمَّي القميص؟

- نعم..

أجابتها شيرين بنبرةٍ مرتجفةٍ وقد بدأ الارتياع يغزو قلبها.

- ذراعه الأيسر، صفيه لي.

- عضلاته بارزة، وعليه وشم لعقـ..

شهقت الأم وهي تحاول إسكات شيرين بكفها المرتعشة، ثم أطلقت صرخة طويلة ملتاعة وهي تحاول القيام لتنهار أرضًا صارخة:

- ابني!

***

-49-

الفاجعة

توالت الأحداث سريعًا حتى لم تعُد ندى تتذكر الترتيب الذي حدثت به..

لحاقها بغالية في دورة المياه والتي انهارت من بين ذراعيها وافترش جسدها الأرض الباردة وقد كست الدموع وجنتيها وتناثرت آثار القيء على فمها وملابسها. غادرت وجهها نظرة الاعتداد بالنفس إلى الأبد، ولم يبقَ في وجهها سوى الخوف..

نوبة الهياج التي اجتاحت السيدة العجوز وصرخاتها الملتاعة وهي تتفوه بعبارات غير مفهومة، وجسدها يرتج على الأرض بعنفٍ بينما شيرين تحاول حماية رأسها من الارتطام بالبلاط وقد تيبس ذراعاها وقدماها في وضع ملتوٍ مخيف.

الطَّرق الشديد الذي تلا ذلك.. ظهور عاصم المفاجئ، والاهتمام البادي على وجهه. اتصاله بالإسعاف.. صوت «سارينة» سيارة الإسعاف المميز يتصاعد إعلانًا عن وصولها.. محاولة المسعفين نقل جسد السيدة المتشنج إلى المحفة والقيام بالإسعافات اللازمة لها وإصرار شيرين على

ركوب السيارة معها وسط النظرات الناهشة لمَن تجمَّعوا حولهم من الجيران وأهل البلدة على أثر صرخات المرأة.. صوت «السارينة» يبتعد حتى يختفي..

***

انطلقت سيارة الإسعاف بمَن فيها نحو الوحدة الصحية القريبة، بينما ظلت ندى مع غالية تحاول تهدئتها.

كانت الفتاة ذاهلة لا تقوى على الكلام ولا القيام. ساندتها ندى حتى مكنتها من صلب طولها والوقوف على قدميها.. ساعدتها في غسل وجهها وتبديل جلبابها بآخر نظيف وجاف. ثم أعدَّت لها كوبًا من الليمون بالسكر وجلست بجوارها تحاول إقناعها في رفق بشرب بضع رشفات منه.

جلس عاصم أمامهما في نفاد صبرٍ يتحرَّق شوقًا لفهم ما جرى، فلولا أنه عرف من رئيس التحرير بالصدفة عن سفر ندى إلى المنيا لما أمكنه الوصول في الوقت المناسب. لم يجرؤ برغم فضوله على سؤال ندى عمَّا حدث، فقد بدا جُل همها مراعاة الفتاة والعبور بها فوق الموقف العسير الذي لم تفهم هي نفسها سببه أو أبعاده بعد.

لم تحاول الاستفسار من الفتاة عمَّا رأته هي أو أمها في الصور، بل أخذت تمسح صدغيها بمنديلٍ مُبللٍ بالعطر وتدلك

كفيها في حنان.

ألفى عاصم نفسه شاردًا مع لفتات ندى الحانية الرقيقة. تستطيع هذه الفتاة الذهبية أن تُضفي الإنسانية على أي موقف مهما بدا صعبًا أو مُلحًا. هدأ عاصم وقد هدهدته حركات ندى الرقيقة، أو ربما نومته مغناطيسيًا.

قفزت ميهان إلى مخيلته. لن ينسى رقصها بين ذراعيه بعد دقائق من إرسالها للصور التي كادت تودي بمستقبله المهني. قدرتها على التلاعب، دموعها التمساحيَّة التي تذرفها تحت الطلب، جمالها الساحر المصطنع بدقة واقتدار. شبكة من الخيوط العنكبوتية الرقيقة تُكبِّله، فهل لها من فكاك؟

لماذا تذكَّر ميهان الآن؟

أفاق عاصم من أفكاره على صوت غالية.. والكلمات تتدفق من فمها..

***

حينما بدأت غالية تسترد إدراكها لمحت الصورتين اللتين أتت بهما ندى راقدتين على المنضدة الرخامية التي تتوسط الصالون. أشارت إليهما، ترددت ندى فأصرَّت غالية وحاولت القيام، ربتت كتفها ندى وقرَّبت لها الصور. بإصبع مرتجفة، أشارت غالية في الصورة الأولى نحو غالب الممدد على

الرمال في دعة وأعلنت بصوتٍ باكٍ:

- هذا ليس أخي!

دوَّت كلماتها في سماء الغرفة كالقنبلة.

قنبلة فرَّغت المكان من الهواء وعلَّقت أنظار ندى وعاصم بشفتي غالية المرتعشتين التي ما لبثت أن أكملت قائلة:

- إنه أمير.

***

-50-

الحقيقة

تسارعت الكلمات من بين شفتي غالية كطلقات الرصاص. أخبرتهما بأن أخاها غالب كان مصابًا بحساسية ضد الأسماك القشرية، لم يكُن يستطيع أكلها ولا حتى لمسها دون أن يُصاب بنوبةٍ عنيفةٍ من الحساسية والتورُّم. لا يمكن أن يكون هو مَن يحمل الطبق المليء بالقشريات البحرية ويلعق أصابعه. أما الصورة الثانية ذات الأكمام المرفوعة، فيظهر بها وشم العقرب المميز لذراع أمير.

***

- لذلك كان حريصًا على ارتداء ملابس ذات أكمام طويلة في كل الصور.

- ما عدا تلك التي كشفته!

عقبت شيرين بعد أن اجتمعت مع ندى وعاصم في المقهى المُطل على النيل، وهي تستمع منهما لما أفضت به غالية قبل أن يذهبا بها إلى الوحدة الصحية لحاقًا بوالدتها ويتركاهما هناك مع الأقارب والجيران.

أمَّنت ندى على ملاحظة أختها قبل أن تقول:

- فقد حذره في تلك الصورة الوحيدة.. فقادت ميادة للشك فيه.

قال عاصم:

- أدركت ميادة الحقيقة لمعرفتها الشخصية بكلٍّ من أمير وغالب. وبدلًا من أن تقوم بإبلاغنا، قررت أن تستغل الأمر لصالحها، فأرسلت لأمير تبتزه. ولكنها لم تأخذ في حسبانها أن المجرم الذي يقتل مرة، يقتل مرتين.

- الفتاة التعسة، دفعت حياتها ثمنًا لما لا يُغني ولا يُسمن من جوع.

قالتها ندى في حزن وهي تتأمل النيل الذي عشقته الفتاة فابتلعها..

- حقها لن يضيع سدى.

أكد عاصم بصرامة.

- ما الذي يمكن لكم أن تفعلوه؟

- الكثير.. أولًا سنقوم بعمل فحص (DNA) للجثة التي وجدناها خلف الجدار في شقة نجيَّة. لقد كان المجرم من الذكاء بحيث قام بدق نفس الوشم على ذراع غالب بعد قتله.

- لم يكن أمير مَن دق الوشم، بل إيلينا. فقد كانت تعمل في دق الوشوم سابقًا. غالية قالت إنها هي مَن دقته لأمير. كانت ستقول ذلك للشرطة حين رأت الجثة في ثلاجة المشرحة ولكنها شعرت بعدم أهمية تلك المعلومة بعد أن قُتل.

- هذا يُفسر دقته وتماثله في التفاصيل والموضع من الجسم. كانت حركة ذكية منهما ضللتنا في التعرُّف على الجثة خاصة مع أوراق المجرم الثبوتية التي تركها بجوارها ليوهمنا بأنها جثته. ثم أطلق لحيته وارتدى عدسات لاصقة خضراء وفوقها نظارة المجني عليه الذهبية لكي ينتحل شخصيته بدقة.

- ولكن لماذا؟

- في الأغلب نمَت علاقة غير شرعية بينه وبين إيلينا زوجة غالب.

- كان يمكنها الانفصال عن غالب وتزوج أمير دون الحاجة لإراقة الدماء.

- والمال؟ غالب كان غنيًا وله إرث وأراضٍ ورصيد مُغرٍ في البنك، بخلاف راتبه ذي الخمسة أصفار على الأقل.

- ولكن كيف تمكن أمير من القيام بمهام عمل غالب دون أن ينكشف؟

- بالتأكيد اكتسب خبرة من عمله معه بنفس الشركة في الإمارات، ومعه السكرتيرة التنفيذية لتسهل له انتحال المنصب بسهولة. وربما كانت خطتهما أن ينتظرا حتى تلبس التهمة نجيَّة، وتُغلق القضية ثم يترك أمير الشركة ويستمتعان بأموال غالب.

ساد الصمت للحظة قبل أن تعقب ندى في شرود:

- لهذا كانت الحاجة زينب تذبل وتفقد وزنها.. قلبها أخبرها بأن ابنها ليس على ما يرام، ولكنها لم تستطع كشف ما حدث.. إنه قلب الأم المكلوم.

ثم أردفت في أسى:

- كان يجب أن أعلم الحقيقة منذ البداية، كانت واضحة تمامًا في أوراق نجيَّة وكلامها.

- واضحة.. كيف؟

- نجيَّة في أوراقها لم تتكلم عن أخيها أمير أبدًا، لم تذكر له مواقف حميمة أو تصفه باعتباره سندًا لها. بينما على العكس، وبرغم كلامها اللاذع عن غالب في الأوراق، إلا أنها كانت دائمة السؤال عنه في المستشفى، وكانت تتكلم عنه بلطفٍ وحنان. كان يجب أن أصدق غريزتها التي كانت واضحة

للعيان وأميز الشرير من الطيب.

ابتسمت شيرين مشفقة:

- لا تُحمِّلي نفسكِ أوزارًا خيالية يا ندى، لولا إيمانكِ ببراءتها لم نكُن لنقطع هذه المسافة بحثًا وراء الحقيقة، ولم نكُن لنكتشف المجرم الحقيقي.

أومأ عاصم برأسه مؤمِّنًا فسألته شيرين في اهتمام:

- ماذا ستفعلون بعد ظهور نتيجة اختبار الـ«DNA»؟

- سنراجع سجلات الموانئ الجوية والبحرية بالجمهورية لنُثبت دخول أمير بجواز سفر غالب إلى مصر بالتزامن مع الوقت الذي اختفت فيه ميادة، ثم سفره خارج البلاد ثانية. سنُراجع أيضًا حسابات التواصل الاجتماعي الخاصة بميادة بحثًا عن رسائلها من وإلى أمير. بالتأكيد وعدها بمبلغ من المال ثمنًا لسكوتها، وبه استدرجها للقاء الذي تخلص منها فيه. بهذه الأدلة سنقوم بإبلاغ جهاز الإنتربول لإيقاف أمير. المهم ألا يتسرب إليه خبر اكتشاف أمره لكيلا يهرب. سنوجه له تهمة قتل كلٍّ من غالب وميادة.

- والقرد؟

هتفت ندى فالتفتت صوبها نظرات عاصم وشيرين

المندهشة. فسَّرت لهما ندى:

- قلبي يُخبرني بأن نجيَّة لم تقتل القرد، نجيَّة ليست قاتلة. بل قتله أمير. قتله شرًّا، وكيدًا في أخته المغلوبة. وربما قتله كي تكون جثته مبررًا منطقيًّا إذا ما تصاعدت رائحة جثة غالب من الشقة.

- ربما كنتِ مُحقة، سنُعيد التحقيق ونتتبع كل دليل حتى نصل إلى الحقيقة.

- وهل ستخرج نجيَّة؟

- هذا السؤال يجب أن يُجيب عنه دكتور مراد يا ندى. ما رأيكِ أن نزوره غدًا؟

قالت شيرين، فعقب عاصم:

- نجيَّة سيُسمح لها بالخروج من المستشفى فور الانتهاء من تحقيقات وأوراق القضية، وسأحرص على أن يتم ذلك في أقرب وقت ممكن. ولكن المهم أن تسمح صحتها النفسية بذلك.

- أنا متأكدة أنه بزوال الشر ستتحسن نجيَّة سريعًا.

- لا تنسي أنها أصبحت غنية الآن، فهي سترث غالب مع أمه وأخته لأنها ما زالت على ذمته، بينما لن تنال إيلينا مليمًا

واحدًا؛ لأن القاتل لا يرث مَن قتله.

اتسعت ابتسامة ندى وهي تقول في حماس:

- ستتمكن نجيَّة من بدء حياة جديدة في مكان جميل يليق بها. وسأحرص أنا على ذلك. هذا عهد عليَّ.

لم يكن عاصم وشيرين فقط هما الشهود على وعد ندى الذي قطعته على نفسها، بل شهد عليها شاهد سرمدي عظيم كان له دور لا يُغتفر في القضية.

النيل..

***

-51-

النهاية

وقفت ندى في بهو شقة العباسية تتأمل الجدران التي انقشع عنها ورق الحائط القديم، وطُليت بلون رائق هو مزيج من لون الصوف الطبيعي واللون الرمادي الفاتح.

بيت نجيَّة.. حيث بدأت القصة.. وانتهت..

تذكرت ندى زيارتها الأولى لنجيَّة في المستشفى حين رددت بإصرار: «غالب في البيت. كل شيء في البيت».

وقد كانت مُحقة!

ولكن البيت تغير..

لم تعُد هناك رائحة نتنة تنبعث من أركانه، ولا صمت مطبق يُنذر بالشؤم فيه. تبخرت ظلال الشر التي كانت تلاحقه وزالت مع الشرير إلى غير رجعة.

تناثرت قطع أثاث عصرية بسيطة في أرجاء البهو بدلًا من أثاثه القديم. لم يبقَ منه سوى المكتبة الخشبية الضخمة التي عادت إلى موضعها القديم فلم تعُد تُخفي خزانة الحائط وراءها.

اقتربت ندى من المكتبة في هدوء وأخرجت من حقيبتها بروازًا خشبيًا يحوي نصف صورة. نجيَّة الصغيرة بعينيها الضاويتين بالحب والأمل بجوار والدها الطيب. وضعته على رفِّ المكتبة في ذات موضعه القديم.

رفعت عينيها نحو السيدة الواقفة في وداعة أمام لوحة رسم كبيرة تخط بفرشاتها على صفحة اللوحة البيضاء خطوطًا ملونة وفراشات وأزهارًا.

كانت نجيَّة تُعطي ظهرها لندى، تمامًا كما رأتها أول مرة في غرفة المستشفى، أمامها الشرفة مفتوحة بستائرها الحريرية الجديدة ونور الصباح يتخلل شعرها ويحيطه بهالةٍ من الضوء.

لم يعُد شعرها مهوشًا، بل استقر في ربطة شعر أنيقة. وظهرها لم يعُد شديد التحدُّب، بل استقام قليلًا أمام المسند الخشبي للوحة.

اقتربت منها ندى. وضعت كفها على كتفها في رفق، رفعت نجيَّة عينيها عن اللوحة وأراحتهما على وجه ندى.. نظرة هادئة، ليس فيها لمعة أمل ضاوية، إنما حَوَت من الرضا والسكون ما جعلها أكثر جمالًا واكتمالًا.

ارتفع صوت من جهة المطبخ:

- أتريدين منِّي شيئًا آخر يا آنسة ندى؟

كان ذلك صوت عواطف ممرضة المستشفى التي اتفقت معها ندى أن تتفرغ لرعاية نجيَّة بالمنزل بعد ترشيحها من قبل د. مراد. رحبت عواطف بذلك الدور سعيدة وانتقلت إلى بيت نجيَّة التي قامت ندى بمساعدة شيرين بتجديده وتحويله لمكان مبهج للسكن. فبعد موت غالب، آلت ثروة صغيرة إلى نجيَّة مكنتهم من عمل ترتيبات مالية تؤمِّن للسيدة الناجية من الشر حياة مريحة. وقد خصَّصت ندى - بناءً على نصيحة الطبيب - جزءًا من البهو ليكون بمثابة مرسم لنجيَّة، فاشترت لها عدة حوامل خشبية ومعدنية، والعديد من لوحات القماش المشدودة على الخشب بمقاسات مختلفة والكثير من الألوان والفُرَش.

أجابت ندى عن سؤال عواطف:

- لا أحتاج شيئًا، سأذهب الآن.

قالت الممرضة وابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيها:

- وصِّي الآنسة شيرين تسلم لي على دكتور مراد، لم أرَه منذ فترة.

ضحكت ندى وهي تقول:

- سأفعل.

انصرفت عواطف لعملها وتفقدت ندى هاتفها قبل أن ترحل.

وجدت رسالة صوتية من عاصم يزف إليها خبر انتهاء التحقيقات مع أمير وإيلينا بإدانتهما بعد أن تم القبض عليهما إثر إثبات نتيجة الاختبار الجيني أن جثة الجدار كانت لغالب. كما ثبُت دخول أمير منتحلًا شخصية غالب إلى الأراضي المصرية عن طريق مطار الغردقة وصولًا من البرتغال باستخدام الطيران العارض (الشارتر) ظنًّا منه أن ذلك سيُخفي آثاره. ولكن القدر كان له بالمرصاد.

تنهدت ندى فرحة بذلك الخبر الذي تحرَّقت له شوقًا على مدى أسابيع.

استرجعت بذاكرتها لقاءها الأخير مع عاصم يوم خروج نجيَّة من المستشفى، فبعد أن اطمأنوا على إيصالها إلى بيتها مع عواطف، اقترحت شيرين الجلوس في أحد المقاهي ليحكي لهما عاصم تطورات الموقف ويجيب عن أسئلتهما المعلقة.

بدأت شيرين قائلة:

- هل ظهر تقرير الطب الشرعي الخاص بالجثة؟

- نعم، لقد أثبت تحليل الخلايا الجذعية أن الجثة لغالب كما توقعنا. تعاون على قتله كل من أمير وإيلينا.

- كيف ولماذا؟

- نمت بينهما علاقة غير شرعية حينما كانا معًا في دبي، وعندما علما بأمر الترقية المرتقبة لغالب بدأت خطتهما تختمر. اتفقا على أن يختفي أمير فترة حتى يظن الجميع أنه مات. وكان السفر إلى ليبيا الفرصة الذهبية لذلك. خاصة وأن إدارة الشركة اكتشفت لاحقًا اختلاسات كبيرة من المواد الخام بالشركة وقد أشارت أصابع الاتهام لأمير الذي نفذ الاتفاق وأوهم الجميع بموته. انتظرت إيلينا حتى ليلة سفرهما إلى البرتغال. ودَّعت مع غالب أمه الحاجة زينب وأخته، ثم ذهبا لتوديع نجيَّة.

- وهل كان غالب معتادًا على زيارة نجيَّة؟

- نعم. أقر حارس العقار أن غالب كان يزور نجيَّة مرة كل سنة أو سنتين.

- ولكنها ذكرت في أوراقها أنها لم تره منذ ليلة الزفاف.

- ثم عادت وقالت لكِ إن غالب في البيت، أليس كذلك؟ كانت نجيَّة مشوشة في أيامها الأخيرة في البيت. احتفظت في عقلها بصورة زوجها ليلة الزفاف، وأسقطت كل ما يخصه

بعد ذلك لأنه لم يكن يعيش معها كزوجٍ بل كان يزورها كغريبٍ من وجهة نظرها، وكانت هي بانتظار غالب الزوج الذي سيعيش معها إلى الأبد.

- هل يعني ذلك أن غالب كان شخصًا جيدًا؟ لماذا إذن أجبرها على التنازل له عن ميراثها؟ ثم تركها معلقة؟

- التنازل عن الميراث كان فكرة الجد الذي أدرك فساد أمير مبكرًا وأنه لن يلبث أن يُجرِّد أخته من ميراثها وممتلكاتها بعد أن يُبدِّد أمواله. فعل غالب ذلك حفاظًا على أموال نجيَّة، فهي لم تكُن قادرة على إدارة مصالحها كما تعلمان. أما كونه تركها معلقة فكانت تلك أوامر أمه المسيطرة التي كان متعلقًا بها كثيرًا ولا يستطيع أن يرفض لها طلبًا. سايرها في البداية متوقعًا أن تلين مع الزمن فلم تفعل ومرت السنون وبقي الوضع على ما هو عليه.

أومأت ندى برأسها ثم قالت:

- أكمِل، ما الذي حدث ليلة مقتل غالب؟

- ذهب غالب مع إيلينا لزيارة نجيَّة، وهناك كان أمير يختبئ في انتظارهما.

- ألم ينتبه الحارس لذلك؟

- الحارس أخبرنا بزيارة غالب وإيلينا وقضاؤهما عدة ساعات مع نجيَّة قبل رحيلهما. أما أمير، فبالتأكيد تسلل إلى المنزل الذي يملك مفتاحه، فهو بيت أهله. تسلل إليه وانتظر فيه حتى اللحظة المناسبة التي هشم فيها التمثال الجرانيتي على رأس غالب فأرداه صريعًا، ثم قامت إيلينا سريعًا بدق الوشم على ذراع غالب مطابقًا لوشم العقرب الذي دقته هي بنفسها لأمير من قبل. وهو ما جعل غالية تجزم بأن الجثة لأمير دون أن تفكر مرتين. أخبرتنا أيضًا عن علاقة غير شرعية قامت منذ أكثر من خمسة عشر عامًا بين أمير الذي كان ما زال طالبًا وبين ابنة أخت عم حامد. كانت فتاة يتيمة يرعاها خالها وقد غرَّر بها أمير فتوعده عم حامد بالقتل، ولكنه سرعان ما قبل بمبلغ كبير من المال مقابل سكوته. شكَّت غالية للحظة في أن يكون عم حامد متورطًا في قتل أمير، ولكن معرفتها بالرجل جعلتها تصرف النظر عن شكوكها، فهو لا يهمه سوى المال، ولقد قبض منه وكان لا يزال يقبض من العائلة ما يرضيه.

- ونجيَّة؟ هل شهدت قتل زوجها؟

- أغلب الظن أن أمير قد خدَّرها فلا يمكن أن يُغامر بأن تشهد ما حدث حتى لو كانت قواها العقلية مشكوكًا فيها ولن يصدقها أحد.

- وبعد ذلك؟

- تعاون أمير مع إيلينا على دسّ الجثة في الخزانة ثم إخفاء معالمها باستخدام الطلاء الذي كان أمير قد أعده في المنزل من قبل لتلك اللحظة. بعدها دفعا المكتبة الخشبية لإخفاء مكان الخزانة بها.

كفَّ عاصم عن الكلام ليرتشف رشفة من قهوته، فسألته شيرين:

- إن لم يكُن لعم حامد علاقة بالأمر، فلماذا اختفى؟

- دأب عم حامد على سرقة أشياء من شقة نجيَّة، كان يُخبئها في الخزانة ثم عندما لا يكتشف أحد اختفاءها يُسربها إلى الخارج في أوقات بعينها. حينما عاد ووجد الخزانة مطلية ومخبأة خلف المكتبة ظن أن غالب كشفه فقرر الاختفاء فترة عن العيون.

سألت ندى سؤالها الأخير وقلبها يتوجس خيفة:

- مَن قتل القرد؟ أمير أم نجيَّة؟

- الاحتمالان قائمان ولم نستطع ترجيح كفة أيٍّ منهما للأسف.

كان هذا آخر سؤال في جلستهم الثلاثية، بعدها افترقوا

على وعدٍ بلقاءٍ قريبٍ لم يتم.

تذكرت ندى لحظاتهم الأخيرة سويًا.. صوته الرخيم.. والابتسامة التي أضاءت وجهه على غير العادة.. والراحة التي بدت على ملامحه ولغة جسده. اعترفت لنفسها بأنه أوحشها.. فتحت صورته من صفحته على موقع التواصل الاجتماعي.. تأملت مجددًا كفه التي خلت من خاتم الخطبة البلاتيني..

وبقلبٍ يدق بالأمل، رفعت ندى عينيها إلى السماء حالمة، وتساءلت إن كانت الأقدار تحمل لها فصلًا جديدًا معه؟

شد نظرها نتوء غريب يخرج من طرف قضيب ستارة الشرفة. أثارها الفضول فنادت على عواطف كي تكتشف كنهه. سحبت عواطف سلم المطبخ الخشبي القصير واعتلته ومدّت يدها فسحبت ما كان محشورًا في طرف القضيب.

عدة أوراق مثنية على شكل أسطوانة، فتحتها ندى.. ولاحظت الخط الكبير ذا الحروف المكورة. قرأت السطور الأولى..

امتقع وجهها ونظرت إلى نجيّة في ذهول.

تذكرت عبارتها: «كل شيء بالبيت».. وتساءلت في جزع: كيف غفلوا عنه جميعًا؟!

***

شكر

القراء الأعزاء..

شاركتموني رحلتي الكتابية حتى أصبحنا معًا في الصفحة الأخيرة من روايتي السابعة.. أنتم الملهمون والوقود والهدف. شكرًا لقراءتكم ولوجودكم الدافئ في حياتي.

زوجي الحبيب الداعم.. دائمًا وأبدًا..

بنات عائلتي وكنزي الذي لا يفنى.. شذى ومريم وفاطمة ورضوى وعلياء وسمية ورغدة.. وصديقتي الجميلتين شيرين وياسمين.. شكرًا لقراءتكم المبكرة للرواية والتي ساعدتني كثيرًا في إتمامها..

الكاتبة المبدعة أُلفت عاطف التي ساعدتني في الاهتداء للتشخيص المناسب لحالة نجيّة وأمدّتني بمصدر معلومات مهم.

الطبيبة وأستاذة الطب الشرعي الجميلة د. سمر عبد العظيم التي أمدّتني بمعلومات قيمة وألهمتني في رسم مشاهد مهمة في الرواية.

الكاتبان محمد عباس وطارق بدر، لكم استفدت منكما فشكرًا..

الكاتب والطبيب حازم نجيب، شكرًا لنصائحك ودعمك الذي أتاني في وقتٍ كنت الأحوج فيه. سأظل مدينة لك.

ناشري السابق شريف الليثي.. تعلمت منك الكثير واستمتعت بمحطتي في تويا.. شكرًا.

محمد جمال ومحمد عبد السلام في منصة كتبنا للنشر.. شكرًا للبداية الجميلة والتجربة الملهمة.

ناشري الحالي في الدار المصرية اللبنانية..

شكرًا للتعاون والثقة.. والتجربة الفريدة.. والأفق الأرحب.. والأحلام التي لا تنتهي.